المصادر الرئيسة حول جلال الدين الرومي

هناك العديد من المشاهير في التاريخ الإسلامي، ولكننا لا نعلم الشيء الكافي عنهم وعن حياتهم. ولعل الرومي عُدّ استثناءً من بين هؤلاء. حيث نملك مصادر عديدة غنية عن حياته، لأن عائلته كانت عائلة معروفة، وأنه استطاع أن يترك في نفوس أهل بيئته أثرا بالغا طيبا. فأصبحت حياته بذكرياتها وبمختلف أحوالها محورا لكثير من المؤلفات التي دوّنت عنه. وقبل الشروع في الحديث عن حياته نود أن نذكر شيئا موجزا عن مصادرنا الرئيسة.

لاشك أن أهم مصدر حول كل شخصية مهمة هي المؤلفات. ومع الأسف فجلال الدين الرومي لا يتكلم عن نفسه في كتبه إلا نادرا. فإن أهم المصادر حول جلال الدين الرومي بصرف النظر عن المصادر الثانوية، هي:

١. سلطان ولَد: ولد نامَه / ابتدا نامَه

قام ولده وخليفته من بعده "سلطان ولد" (-١٣١٢م) بذكر معلومات محدودة عن والده في بعض مؤلفاته. فمن أهم هذه المؤلفات كتابه "ابتداء نامه" المعروف تحت اسم آخر أيضا هو "ولد نامه"، وهو يشبه كتاب "المثنوي"، وقد ألفه عام ١٢٩١م. ويحتوي هذا الكتاب على عشرة آلاف بيت. ومع أنه كُتب حول الرومي وحول محيطِه وبيئته، إلا أن طابعه العام كان حكميا وتعليميا، لذا ظلت المعلومات عن الرومي في المرتبة الثانية. والحق يقال إن المعلومات المطروحة في الكتاب موثوقة لا يرقى إليها الشك إلا أن تبعثرها وقصرها يشكل صعوبة أمام الباحث. (انظر: كول بنار، ابتداءنامه (١٩٧٦).

٢. فريدُون بن أحمد، سِبَهْسالار: رسالة سبهسالار

خدم الكاتبُ جلالَ الدين الرومي منذ صباه أربعين عاما. ثم قام بتأليف كتاب عن الرومي -بعد وفاته- وعمن صحبه. إلا أنه توفي قبل إكماله الكتاب (ت بعد

١٣١٢م) لذا قام ابنه بتكملة القسم الأخير منه. والكتاب يبدأ بتسجيل المعلومات حول "بهاء الدين ولد" والد الرومي، وينتهي بالحديث عن الشخصيات المهمة التي لها صلة بالرومي مثل "أُولُو عارف جَلَبي" و"عابد جلبي". وفي مقابل الأسلوب البسيط والسهل لكتاب "سلطان ولد" اختار "سِبَهسالار" أسلوب سرد المناقب على غرار كتابِ "تذكرة الأولياء" لفريد الدين العطار. لذا يجب الحيطة تجاه المعلومات التي أدرجها في كتابه.

٣. أفلاكي: مناقب العارفين

هذا الكتاب هو أشهر المؤلفات التي كتبت عن جلال الدين الرومي وأصحابِه وأوسعُها انتشارا. تقول إحدى الروايات: إن "أفلاكي" قدِم إلى "قونية" عام ١٢٩١م (وفي روايات أخرى بعد هذا التاريخ بكثير)، وقابل "سلطان ولد"، ثم انتسب إلى ولده "أُولُو عارف جلَبي"، (ت ١٣٦٠م). بدأ بتأليف كتابه (عام ١٣١٨م) بطلب من شيخه، ولم ينته منه إلا بعد سنوات طويلة عام ١٣٥٣م. وقد استفاد في كتابه هذا من كتاب "ابتدَا نامَه" والمؤلفات الأخرى لـ"سلطان ولد"، كما استفاد وبشكل واسع من كتاب "رسالة سِبهسالار" ثم أضاف ما سمعه من أصحاب جلال الدين الرومي إلى كتابه الضخم.

وحسب رأي "يازجي" الذي قام بترجمة مناقب العارفين إلى اللغة التركية، فإن هذا أفضل من المَصدرَين السابقين بكثافة المعلومات وسلاسة الأسلوب وتتابع المعنى، إلا أنه ينقد الكتاب لمبالغاته وكثرة ما فيه من أخطاء، وخصص جزءًا كبيرا من بحثه في تقصي هذه الأخطاء وبيانها (انظر: أفلاكي ٣٣-٧١). والحقيقة أن كثرة التناقضات بين هذه المصادر الثلاثة تشكل صعوبة للعديد من الباحثين حول الرومي. وقد راجعنا -إلى جانب هذه المصادر- مصادر أخرى ولا سيما من مادة الرومي الموجودة في "DVIA" (٢٩/٤٨-٤٤١)، وكذلك من الكتاب القيم: "مولانا جلال الدين" لمؤلفه بديع الزمان "فيروزانفر". ومع أننا راجعنا مصادر عديدة إلا أن هدفنا لم يكن تأليف كتاب أكاديمي. لذا لم نغرق

الكتاب بالهوامش العديدة، ولم نتعرض كثيرا لمواضيع الخلاف، بل فضلنا نقل ما اتفق عليه.

بلخ

بارِكوا أيها الرائحون والغادون مدينة بلخ!

فقد امتلأت فيها كأس الكؤوس

لعل من يروم زيارة مدينة الرومي ويتوجه إلى شمالي أفغانستان يصاب بخيبة أمل كبيرة، حيث يَرى مدينة بلخ قد أضحت قصبة ليس فيها إلا البيوت المبنية من الطابوق والأزقة الضيقة. فهذه المدينة كانت في الماضي من أجمل مدن خراسان وأشهرها. أما اليوم فلم يبق في هذه المدينة المتداعية سوى أطلالِ مدارسَ دينية وبقايا أضرحة. فأمام هذا المشهد يتساءل المرء في تعجب: "أهذه هي المدينة التي نشأ فيها رجال عظماء كأمثال بهاء الدين ولد، وجلال الدين الرومي؟ أهذه هي المدينة التي كانت في يوم من الأيام مركزا للعلم والعرفان؟!"، فيعجز الزائر بذلك عن المقارنة بين الماضي الزاهر والحاضر اليابس لهذه المدينة.

فُتِحت هذه المدينة من قِبَل جيوش معاوية عام ٤٣ هـ، وتنقلت السلطة فيها طوال التاريخ بين العديد من الأسَر العريقة، ونمت وتطورت حتى انقلبت إبان عهد جلال الدين الرومي إلى مدينة تجارية مزدهرة، وإلى مدينة تتباهى بمدارسها الكبيرة وعلمائها العظام، فلقبت بـ"قبة الإسلام". وبالإضافة إلى الحياة العلمية الزاخرة بالحركة والحيوية، كان هناك تيار صوفي قوي في مدينة بلخ؛ فقد عاش على أرضها إبراهيم بن أدهم، و"شقيق البلخي"، كما كان شيخ الطريقة الكبروية "نجم الدين كبرى" (١١٤٥-١٢٢١م)، على قيد الحياة في مرحلة طفولة الرومي. إلا أن نهاية سيئة كانت تنتظر هذه المدينة الشهيرة التي كانت عاصمة الخارزميين. فقد تعرضت بلخ بعد هجرةِ عائلةِ "بهاء وَلَدْ" منها إلى استيلاء جيوش المغول التي اجتاحت العالم الإسلامي كإعصار مدمر، وأعملت السيف في أهالي المدينة بأجمعهم. لقد كانت هذه المأساة عظيمة

إلى درجة أن الرحالة ابن بطوطة عندما مر بها بعد قرن تقريبا (١٣٦٨-١٣٦٩هـ) وجدها مدينة خربة وتنتشر فيها الأطلال. ومع أنها حاولت النهوض فيما بعد، إبان وجودها في حوزة الأوزبيك ثم إيران ثم أفغانستان إلا أنها لم تستطع استرجاع كل عافيتها، ولا الرجوع إلى عهدها الزاهر، وظلت حتى اليوم مدينة خربة لا تملك ميزة سوى أنها المدينة التي ولد فيها جلال الدين الرومي.

بهاء وَلَدْ

ينتسب جلال الدين الرومي إلى عائلة عريقة في العلم والحكمة؛ فقد كان والده "بهاء الدين وَلَد" من أشهر علماء المدينة ومن المتصوفة المعروفين، حيث لُقّب بـ"سلطان العلماء". ويَذكر "سِبَهسالار" (أول مَن كتب مناقب هذه العائلة) أن "بهاء الدين ولد"، الذي ينحدر من سلسلة الطريقة الصوفية التي تنتهي إلى "أحمد الغزالي"، كان من مريدي "نجم الدين كبرى" الذي رفض الهروب من المدينة عند استيلاء المغول عليها، بل قاتل هو ومريدوه الغزاةَ بكل بسالة حتى الاستشهاد.

والطريقة الكبروية هي فرع من طريقة "الشطّار"، وتَرى العشقَ والجذبةَ والوجد هي السبيل الوحيدة في الوصول إلى الحق ﷻ. وسرت أفكار الطريقة الكبروية إلى الطريقة المولوية فيما بعد.

يقول "أفلاكي" -الذي يتسم أسلوبه بالمبالغة عند كلامه عن عائلة الرومي-: إن بهاء الدين ولد، ينتسب من جهة الأم إلى "علاء الدين محمد خوارزم شاه" فهو حفيده. ولكن هذه المعلومة غير موجودة في المصادر الأخرى، لذا قد تكون خيالية.

كان "بهاء ولد" عالما وقورا يحظى باحترام الجميع في بلاده. تزوج في أواسط عمره من "مؤمِنَه خاتون" بنت "ركن الدين" أمير بلخ، فأنجبت له ولدين: الأول "علاء الدين محمد"، والثاني "محمد جلال الدين" الذي عرف فيما بعد بـ"جلال الدين الرومي"، وعرف أيضا بـ"مولانا" التي تعني "سيدنا". ومع مرور الأيام غُلِّب عليه لقب "مولانا" وأصبح الاسمَ الدارجَ على ألسنة الناس. وتذكر مصادرُ أخرى

أنه لُقّب بعدة ألقاب؛ فمثلا كان والده يدعوه بـ"خداوَنْدِگار" أي السلطان، وغيره ينسبونه إلى بلده فيدعونه بـ"البلخي"، ودَعَوه أيضا بـ"الرومي" نسبة إلى أرض "الأناضول" التي قضى فيها عمره، ودعوه بـ"مُلاّ هُنْكار"، و"مُلاّ الرومي" نسبة إلى وظيفته كمدرس ومعلم.. هذه هي أهم الألقاب التي اشتهر بها الرومي.

ورغم قضائه معظم عمره في الأناضول إلا أنه لم ينس بلده الأصلي أبدا؛ فكثيرا ما يَذكر في مؤلفاته أنه من خراسان التي ارتبطت بها مدينته بلخ، ونستشف من أسلوبه مدى حبه لموطنه القديم ولمواطنيه فيه.

لا نجد في مؤلفات الرومي أيّ معلومات مؤكدة عن نسبه، بينما يذكر "سِبَهسالار" و"أفلاكي" أن نسب والده "بهاء الدين" يتصل بأبي بكر الصديق ﷺ. ولكن ورد في إحدى رباعيات الرومي قوله:

"أصلم تركست أگر چه هندي گويم"،

"إني تركي الأصل ولو أني أتحدث بالهندية (الفارسية)".

ولكن هذا البيت لم ينه النقاش في هذا الموضوع،؛ فقال البعض: إنه في هذا البيت يقصد النسب العِرقي بينما قال آخرون، إنه أراد التعبير عن حبه للعنصر التركي. وقد ورد في كتبه أسماء العديد من القبائل التركية مثل؛ (جِغِلْ، كِبْجاق، تركمان، أُوغوز، ياغما، وغيرها..) فنجده يصف هذه القبائل بالشجاعة والسخاء تارة، ويصور خصالهم العرقية والخلقية الأصيلة تارة أخرى. ثم إننا نرى في أشعاره وجود الكثير من الكلمات الفارسية والتركية. ولعل كثرة الكلمات التركية هذه كمثل؛ (أَرْمغان، قِشْلاق، يَايْلاق، سِينير، طانْري، تُورَه، قُونُق، يورْط).. تدعم الرأي القائل بأن الرومي كان تركي الأصل.

تاريخ ومحل ولادته

هناك رأي شائع يقول: إنه ولد في ٦ ربيع الأول عام ٦٠٤ هـ (٣٠ أيلول ١٢٠٧م). ولكن هناك نقاش طويل حول هذا التاريخ. والتاريخ المذكور أعلاه مسجل في نسخة قديمة لديوان "سلطان ولد" يرجع تاريخها إلى عام ١٢٩٥م،

ومسجل أيضا في أقدم مصدرين يعودان لـ"فريد الدين سِبَهسالار" و"أفلاكي"، لذا يمكن الوثوق به أو الاعتماد عليه. غير أن نصا ورد في كتاب "فيه ما فيه" لجلال الدين الرومي يُوقِع القارئَ في الشبهة حول هذا التاريخ، إذ يقول: إنه شهد محاصرةَ مدينةِ سمرقند من قِبَل الخوارزميين، وينقل مناجاةَ فتاةٍ شابة كان يعرفها: "اللّهم لا تجعلني في يد الظالمين". وكان تاريخ هذا الحصار هو عام ١٢٠٧م. ولكي يستطيع الرومي تذكّر هذه الحادثة لابد أن يكون قد بلغ الخامسة أو السادسة من العمر. فمن ثم يقول "ول ديورانت": "إن تاريخ ميلاده هو عام ١٢٠١م"، بينما يتوقع "موريس بارس" أن تاريخ ميلاده هو عام ١٢٠٣م. ومن ناحية أخرى يرى الكاتب التركي "كول بِنارْلي"، أن جلال الدين الرومي كان يبلغ ٦٢ سنة من العمر عندما التقى بـ"شمس التبريزي" عام (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) وذلك استنادا إلى شعر له في كتابه "الديوان الكبير"، أي إن تاريخ ميلاده هو (٥٨٠ هـ/١١٨٤م). ويرى "هلموت رتر" وغيره من الباحثين غير هذا الرأي. ومع ذلك فإن اليونسكو اعتبرت ١٢٠٧م تاريخ ولادة الرومي، وأعلنت ٢٠٠٧م هو العام الذي أَحْيَتْ فيه ذكرى مرور ٨٠٠ سنة على ميلاد الرومي.

الهجرة

ولد جلال الدين الرومي في أسرة عريقة ونشأ في بيئة طيبة ومثقفة، حيث تتلمذ على يد والده فتلقى منه نور العلم والعرفان ثم تتلمذ من بعده على يد بعض مريدي والده المشهود لهم بالعلم والمعرفة. وحسب التقاليد التي كانت مرعية آنذاك فقد تم تخصيص مريدَين اثنين لتعليمه وتنشئته، كان أحدهما "شرف الدين لَالَه السمرقندي" الذي أصبح فيما بعدُ عمَّه (أبَا زوجته)، والآخر هو "سيد برهان الدين" الذي أصبح مرشدَه الأول بعد وفاة والده. والنصوص الموجودة في المراجع عن هذه الفترة من حياة الرومي هي عبارة عن مناقب فقط، فمثلا يقول أفلاكي: إنه في طفولته شاهد وتباحث مع الروحانيين، وأنه صعد إلى معراج معنوي وهو فوق كتف مرشده برهان الدين.. إلى غيرها من الحكايات والمناقب.

في هذه الفترة السعيدة من طفولة الرومي بدأت علاقات والده الملقبِ بـ"سلطان العلماء" تسوء وتتوتر مع الحاكم خوارزم شاه ومع من حوله من المقربين. ويعود السبب إلى اشتداد الصراع بين الحركة الصوفية التي تزعّمها "بهاء ولد" في بلخ، والتيار الفلسفي الذي مثّله "فخر الدين الرازي" (١١٤٩-١٢١٠م) حيث كان قمة في علم الكلام. فكان علاء الدين خوارزم شاه يميل بادئ الأمر إلى المتصوفة ولكنه تحول فيما بعدُ إلى حركة فخر الدين الرازي. ومما زاد في حدة الخلاف بين هذين التيارين قيامُ السلطان برمي مجد الدين البغدادي (المتصوف المعروف في عهده وأبرز المعارضين للرازي) في نهر جيحون. ولعل هذا يشير إلى مدى شدة الخصومة والنفور بين هذين التيارين. فنرى أن "بهاء ولد" في كتابه "المعارف" -الذي جُمع فيما بعد والذي احتوى على جلساته العلمية- وجلالَ الدين الرومي في كتبه يتعرضان بالنقد للفلاسفة وللرازي في مواضع عديدة. وفي هذه الظروف قرر بهاء ولد في عام ١٢١٢م (وفي رواية أخرى في عام ١٢٢١م) الهجرةَ مع أسرته وتوجه نحو الغرب.

إذن ما الدافع الحقيقي لهذه الهجرة؟ يقول أفلاكي: إن الدافع هو التوتر المذكور أعلاه وإن بهاء الدين ولد كان ينتقد الرازي والسلطانَ ويهاجمهما بعنف في خطبه ومواعظه. لهذا طلب السلطانُ منه ترك البلاد ومغادرتها. بينما يقول سِبَهسالار: إن فخر الدين الرازي هو الذي حرض السلطان وألح عليه بإخراج بهاء الدين ولد من البلاد. ولكن ليس لهذه المعلومة أي نصيب من الصحة، لأن الرازي كان قد توفي قبل هجرة بهاء الدين بثلاث سنوات.

أما سن الرومي في أثناء الهجرة فهو موضع خلاف؛ فيرى "أفلاكي" أن ولادة الرومي كانت في عام ١٢١٢م، وأن عمره كان يتراوح ما بين خمس أو ست سنوات. أما "سلطان ولد"، فيرى أن والد الرومي هاجر من بلده عام ١٢٢١م، وكان عمر الرومي آنذاك ١٤ عاما. ويذكر سلطان ولد أيضا أن سبب هجرة جده من البلاد هو استياؤه من أهالي مدينة بلخ، أو أنه تلقى رسالة معنوية فعزم بعدها على الرحيل إلى الأراضي المقدسة، ولم يتطرق خلال ذلك إلى مسألة

التوتر والخلاف المذكور آنفا. أما "نيكلسون" و"هلموت ريتر" فيعتقدان أن والد الرومي هجر بلاده هربا من الخطر المغولي. وقد ثبت في المصادر التاريخية أن السبب الرئيس في الهجرة لا سيما هجرة العائلات العريقة نحو الغرب هو اتقاء شر المغول، كما أدى تدفق المهاجرين إلى مدينة بغداد إلى ارتفاع أسعار إيجار المنازل بصورة ملحوظة.

في الطريق

كما ذُكر سابقا فإن المعلومات الواردة في كتب "سلطان ولد" و"فريد الدين سِبَهسالار" و"أفلاكي" حول هجرة "بهاء الدين ولد" من بلده إلى الحجاز متناقضة فيما بينها، لا سيما من الناحية التاريخية. لذا لن نقف هنا حول هذه التناقضات، بل سنقوم بتقديم المعلومات عن مسار الطريق الذي سلكه في رحلته هذه مع أسرته ومريديه. ففي كل مدينة حلّ بها في طريقه، استُقبل بحفاوة كبيرة من قبل الأهالي. وكانت المحطة الأولى له بعد خروجه من بلخ، مدينة "نيسابور". وكان المتصوف المشهور "فريد الدين العطار" المتوفى عام ١٢٢١م في انتظاره، حيث كان هو أيضا من سالكي الطريقة الكبروية، وكان من تلاميذ الشيخ نجم الدين كبرى -مثله في ذلك مثل بهاء الدين وَلَد-، لذا كان يشعر بحب قوي تجاه بهاء الدين ولد وبقرب خاص منه. إلا أن اهتمام العطار توجه إلى الابن أكثر من الأب، لأنه رأى الطاقة الكامنة في هذا الابن، فأهداه كتابه المسمى: "أسرارْ نَامَه"، فترك هذا اللقاء أثرا عميقا في نفس الرومي إلى درجة أنه استعمل بعض القصص والحكايات الواردة في هذا الكتاب عندما قام بتأليف كتابه الشهير "المثنوي"، مثل حكاية التاجر الذي سافر إلى الهند. فيُفهم من شرح سلطان ولد أن الرومي كان بعمر ١٤ سنة عند هذا اللقاء. لذا فقيام العطار بإهداء كتابه إلى شخص يافع في هذا العمر يبدو معقولا.

لم تمكث هذه القافلة المهاجرة في المدن الأخرى إلا قليلا، حتى وصلت إلى المحطة الثانية المهمة وهي مدينة بغداد مركز الخلافة آنذاك. وقد جَلبت

هذه القافلةُ الغريبة أنظارَ سكان بغداد. وعندما سُئل بهاء ولد عن الجهة التي أتوا منها قال:

"أتينا من الله، ومهاجرون إلى الله". فراحت هذه المقولة تتردد على ألسنة الكثير من الناس حتى وصلت إلى مسامع الصوفي المشهور الشيخ شهاب الدين السهروردي المتوفى عام ١٢٣٥م، فعرف صاحب هذه المقولة وقال: "لا يمكن أن يلفظ كمثل هذه الكلمات إلا هو"، وأسرع لملاقاة بهاء ولد وقبّل ركبتيه.

كانت القافلة في شوق ملتهب للوصول إلى مكة المكرمة، لذا لم تمكث في بغداد سوى ثلاثة أيام. وقبل أن تنطلق القافلة وصلت إليها الأخبار السيئة من خراسان، حيث احتل المغول مدينة بلخ. ولما كان من المعروف أن المغول احتلوا مدن خراسان في ١٢٢٠-١٢٢١م إذن فقد توضّح تاريخ مكوث بهاء الدين ولد في بغداد بشكل صحيح.

هناك معلومات متناقضة في كتاب أفلاكي والمصادر الأخرى حول الطريق الذي سلكته القافلة بعد الحج. ولكن هذه المصادر تُجمِع على أن المحطة الثانية للقافلة بعد الحج كانت الشام. والظاهر أن بهاء الدين ولد لم يمكث طويلا في الشام حيث توجه -حسب رواية أفلاكي- إلى مدينة أرْزِنجان التي كانت تحت حكم أميرِ مَنكوجَك فخر الدين بَهْرَمْ شاه المتوفى عام ١٢٢٥م سالكا طريق مدينة "مَلَاطْيا" فـ"سيواس". والمؤرخ "ابن بيبي" يسرد فضائل بهرم شاه ويثني عليه كثيرا. فيقول عنه: إنه كان ذا خلق رفيع، وكان كريما ورحيما حتى إنه كان لا ينسى حتى الحيوانات البرية الجائعة، فيضع لها ما تقتات عليه على الجبال في أشهُر الشتاء.

لا يُعرف بالضبط كم بقي بهاء الدين ولد في بلد هذا الحاكم العادل، ولكنه انتقل منه إلى "مَلَاطْيا" ثم إلى مدينة "لاراندا" (قارامان) السلجوقية. وقد استقبله والي قارامان الأمير موسى بحفاوة بالغة تليق بمقامه، وبنى له مدرسة بعد ما عَرَف أنه لم يبت أثناء رحلته الطويلة إلا في المدارس الدينية أو في التكايا.

وقد مكث مدة طويلة في هذه المدينة -وحسب رواية أفلاكي سبع سنوات-

على غير عادته أثناء رحلته. وقد كان لمكوث جلال الدين الرومي في هذه المدينة كلَّ هذه المدة أثرٌ مهم في حياته. ففي هذه المدينة تزوج من "جوهر خاتون" وهي بنت معلمه ومربيه السيد شرف الدين (١٢٢٥م)، وفَقَدتْ عائلتُه في سنة واحدة والدتَه "مؤمنة خاتون" وأخاه الكبير "محمد علاء الدين". وبعد هاتين الحادثتين المحزنتين جاءت فرحتان اثنتان؛ فبعد عام واحد من زواجه وُلد ابنه محمد بهاء الدين الذي عرف فيما بعد باسم "سلطانْ وَلَد"، ثم أعقبه بعد عام ابنه علاء الدين محمد.

عاش الرومي سنوات طويلة مع زوجته "جوهر خاتون" وبعد وفاتها تزوج مرة ثانية في مدينة "قونية" من "كَرّا خاتون" أو "كِرا خاتون" وأنجب منها "مظفر الدين أميرْ عالِمْ جَلَبي" وبنتَه الوحيدةَ "مليكة خاتون". ويقول الكاتب "تحسين يازجي": إن زوجته الثانية كانت رومية الأصل، وإنه كان لها ولد قبل زواجها من الرومي مات في عمر مبكر. ولكن دعونا نرجع مرة أخرى إلى مدينة لاراندا.

تصاعدت شهرة بهاء الدين ولد وذاع صيته في البلاد حتى وصلت إلى قونية عاصمةِ الدولة السلجوقية. وكانت الدولة السلجوقية تعيش آخر عهدها الزاهر، وذلك قبل هجوم المغول عليها. وكان علاء الدين كَيْكُوبَاتْ (ت ١٢٣٦م) على عرش قونية منذ عام ١٢١٩م، وكان يوسع حدود مملكته على الدوام، ويتخذ تدابير ناجحة لحماية بلاده من الخطر المغولي القادم. وإلى جانب دهائه السياسي فقد كان يهتم بالعلماء والأدباء والفنانين ويرعاهم. ومن ثم استقطب الكثير من العلماء والشيوخ إلى قونية. ويقول "أفلاكي": إن علاء الدين كيكوبات غضب على أمير مدينة "قارامان" لكونه استأثر بعالم كبير مثل بهاء الدين ولد وحجزه في مدينته تلك، لذا سارع إلى توجيه الدعوة لهذا العالم للمجيء إلى قونية. ويقوم أفلاكي بتصويرٍ مبالَغ فيه لدخول بهاء الدين إلى قونية إلى درجة أنه يقول بأن السلطان علاء الدين أمسك بزمام فرس العالِم وكأنه خادم له، وقاده حتى وصل إلى قصره، وأنه اقترح أن يتنازل عن عرشه له، ولكن بهاء الدين رفض هذا العرض.ولكن سلطان ولد لا يذكر هذه الأمور عندما يتناول قدوم

جده إلى قونية، لذا يجب التريث في قبول ما قاله "أفلاكي" في هذا الصدد.

قضى بهاء الدين ولد السنتين الأخيرتين من عمره في قونية مشتغلا بالوعظ والإرشاد، فتربع بمواعظه هذه على عرش قلوب أهالي قونية وعلى قلب السلطان. وقام أحد مريديه وهو "أمير بدر الدين جوهر طاش" ببناء مدرسة للشيخ ولعائلته.

توفي الشيخ بهاء الدين وعمره يناهز ٨٥ سنة، وترك وراءه أثرين اثنين: أحدهما مواعظه ودروسه التي جُمعت تحت اسم "معارف"، والثاني هو ابنه جلال الدين الرومي. حيث بيّن كتابُ "المعارف" للعلماء وللمريدين فيما بعد مدى تمكن بهاء الدين ولد من العلوم الظاهرية والباطنية وكيف أنه استحق بجدارة لقبَ "سلطان العلماء". ونظرا لورود ذكر "فخر الدين الرازي" و"خوارزم شاه" وأفكارهما في هذا الكتاب، أصبح الاعتقاد السائد بأن معظم هذه الدروس والمواعظ تعود إلى ما قبل هجرته من مدينته. يقول "فيروزانفر" عن هذا الكتاب: إنه كتاب ممتع في عرضه، أنيق في أسلوبه، فريد في نثره في شرح حقائق التصوف، حيث بقي لسنوات عديدة من أهم الكتب لدى جلال الدين الرومي الذي يرجع إليها. ونحن نرى الجو نفسه سائدا في كتاب "المعارف" وكتاب "المثنوي"، بل توجد حكايات مشتركة بينهما كمثل؛ طرفة العبد "صونكور" مع سيده عند ذهابهما إلى الصلاة. وهذا يبين مدى تأثر الرومي بكتاب والده. ولكن مما لا شك فيه أن الأثر الأكبر الذي تركه بهاء الدين ولد، هو ابنه جلال الدين الذي بدأت مخايل الذكاء والنبوغ تظهر عليه مبكرا، وأنه سيكون محطّ إعجاب وانبهار ممن يلتقيه ويعرفه، الأمر الذي يذمعه إلى إضفاء لقب "مولانا" عليه عند مخاطبته إياه. لقد خلف هذا الإنسان العظيم بهاء الدين ولد، ابنا أعظم منه. لذا تردد اسمه على ألسنة الناس حتى اليوم لكونه أبا لإنسان عظيم كرس حياته لخدمة العلم والبشرية جمعاء.

كان الرومي -عندما توفي والده- قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره حسبما يذكر "أفلاكي". ويمكن أن نقسم حياة الرومي بعد هذا التاريخ إلى مرحلتين:

حياته قبل لقائه بـ"الشمس التبريزي"، وحياته بعد هذا اللقاء. ويمكن أن نطلق على هاتين المرحلتين اسم مرحلة "العقل" ومرحلة "العشق"؛ فمن عام ١٢٣١م حتى عام ١٢٤٤م، أي عام لقائه بشمس التبريزي -إذ كان الرومي في هذه الفترة رجل علم اختار طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة من أجل الوصول إلى الله ﷻ- كان شيخه الأول في هذا الطريق هو "السيد برهان الدين محققْ، الترمذي" الذي كان أحد مريدي والده عندما كان في بلخ. وكان قد أتى إلى قونية لرؤية شيخه، ولكنه عندما وصل علم بوفاته فبقي في قونية ليرشد ابن شيخه وليرفع الروح المعنوية عنده (سلطان ولد ٢٤٤-٢٤٦). سعى جاهدا إلى تحويل ابن شيخه إلى إنسان كامل في العلوم الظاهرة والباطنة. واستمرت هذه العلاقة تسعة أعوام. ولكنهما لم يكونا على الدوام معا طوال هذه الأعوام. لأن الشيخ برهان الدين أَرسل الرومي إلى حلب والشام في عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٣م) لتحصيل المزيد من العلوم الظاهرية، ورافقه في رحلته هذه من مدينة قونية إلى مدينة قيصرية ولم يرجع بل بقي في تلك المدينة.

تلقى الرومي دروسه في حلب في المدرسة الحلاوية وفي الوقت نفسه تلقى دروسا من العالم كمال الدين بن العادم (ت ١٢٦٢م). ولا نعرف المدة التي بقي فيها في هذه المدينة لأنه رحل إلى الشام (دمشق) التي كانت إحدى المراكز الثقافية البارزة آنذاك، وكان لها دور مهم في الحياة العلمية للرومي. فبقي في هذه المدينة أربعة أعوام تعلم فيها اللغة العربية وآدابها والفقه والتفسير والحديث، وحصل على الإجازة في هذه العلوم العقلية والنقلية، كما سنحت له الفرصة هناك للتعرف على كبار رجال التصوف من أمثال محي الدين بن عربي (ت ١٢٤١م)، وسعد الدين حموية، وعثمان الرومي، وأوحد الدين الكرماني، وصدر الدين القنوي.

بعد أن تجهز الرومي بجميع علوم عصره عاد إلى مدينة قيصرية وقابل شيخه السابق برهان الدين، الذي ذكر له أن الشيء الأخير الذي عليه أن يتعلمه هو علم الحال. فمن ثم أمر تلميذه بالخلوة. حيث لا يأكل المختلي مدة أربعين يوما

إلا اليسير من الطعام ولا ينام إلا قليلا وينصرف خلالها إلى العبادة. وبعد ثلاثة خلوات متتالية خرج الرومي وقد تطهر وأصبح قلبه منفتحا للأسرار الإلهية. كان شيخه مسرورا به، قال له: "هيا.. الآن تستطيع أن تنفث في أرواح الناس حياة جديدة، وأن تغرقهم في لجة رحمة لم يعرفوها بعد، وتحيي بعشقك قلوبهم الميتة". ثم ودع مريده حتى مدينة قونية، ولكنه لم يرغب في البقاء فيها. وعندما سأله الرومي: "لماذا لا تبقى معنا؟" أجابه: "لقد توجه أسد من تبريز إلى هنا، وأنا أرى نفسي أسدا، ولا يتسع هذا المكان لأسدين، لذا يجب علي أن أذهب من هنا".

يبدو أن تربة قيصرية شدت الشيخ برهان الدين؛ إذ توفي بعد فترة قصيرة من رجوعه إليها في عام ١٢٤١م. ودفن تحت ترابها، ولا يزال ضريحه يزار حتى يومنا هذا. أما جلال الدين الرومي الذي كان قد وصل إلى أواسط عمره فقد عاد للتدريس كعالم وقور. ومع أنه أخذ إجازة الإرشاد من شيخه برهان الدين إلا أن ملابسه وقيافته كانت قيافة عالم، حيث يلبس جبة واسعة ويضع على رأسه عمامة بطيلسان. كان عدد طلابه في تزايد مستمر، يقول "م. بهاري بيطور": "كان الرومي في هذه المرحلة عاشقا أيضا، ولكن عشقه كان مستترا في تقواه، أما في المرحلة الأخيرة فكان تقواه مستترا في عشقه".

استمرت حياته الهادئة هذه حتى عام ١٢٤٤م، وهو العام الذي التقى فيه بشمس التبريزي. هذا الشخص الذي أصبح ريحا اقتلعت عمامة هذا العالم الهادئ وحوّلته إلى عاشق متفجر العواطف ملتهب الأحاسيس.

شمس التبريزي

كان "شمس" يلقَّب بـ"بَرَنْدا" أي الطائر وذلك لكثرة رحيله؛ فقد قضى معظم عمره في الترحال، يجوب الآفاق والمدن. كان من يراه يحسبه مجذوبا من المجاذيب، ولكنه كان في الحقيقة قد قرأ العديد من الكتب وكتب أيضا؛ فكتابه "المقالات" الذي جُمعت فصوله من مواعيظه تُبيِّن لنا ضلوعه في علوم التفسير والحديث، وإذا غضضنا النظر عن الشروح غير المنتظمة في الكتاب، يعد الكتاب من حيث الأسلوب -حسب رأي فيروزانفر- من أفضل نماذج النثر باللغة الفارسية.

كان "شمس" خلال وجوده في "تبريز" يخدم الشيخ "أبا بكر سلَه باف"، كما حضر مجالس العديد من المتصوفين في البلدان التي قام بزيارتها. ولكن لم يستطع أحد من هؤلاء المتصوفة -وحتى شيخه بالذات- إرواء الظمأ الإيماني عنده. وكان شمس صوفيا محترقا لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجه الله تعالى، ولا يريد أجره إلا من الواحد الأحد. مبتغاه الوحيد هو الله ﷻ، يقول الحقَّ دائما ولا يخشى العباد. ولم يكن من السهل أن يعجب بأحد. كان فوار الأحاسيس لا يقر له قرار. كان قد نهر في الشام الصوفيَّ "أوحد الدين الكرماني"، ولم يكن يُعجب بـ"ابن عربي". كان قد بلغ الستين من العمر ولكنه كان لا يزال يجوب الآفاق طولا وعرضا، يسيح في البلدان ويبحث عن نار كبرى، علها تطفئ نيران العشق الملتهب في فؤاده. يبحث عن بحار تطفئ لواعج قلبه وتشبع روحه الظامئة... كان يبتهل إلى الله ليلا ونهارا:

"يارب! عرفني على أحد أحبابك المجاهيل.

ولا شك أن كل هبة تتطلب ثمنا يعادلها".

سُئل في عالم المعنى: "ماذا ستدفع شكرا على هذه الهبة؟"

أجاب شمس دون تردد: "رأسي".

وأخيرا رأى في منامه بلاد مَن يريد، فتوجه برغبة إلى بلاد الروم. صحيح أن شمس كان ظمآن وأنه يبحث عمن يروي ظمأه هذا، ولكن الذي كان يبحث عنه كان أيضا في حاجة إلى من يبحث. وجلال الدين الرومي قال في بيت له:

"الظمآن يتلوى بنفسه ويقول: أين ذلك الورد العذب،

أما الورد فينادي، أين ذلك الظمآن؟".

وبيت آخر في المثنوي يعبر عن نفس المعنى:

"إن رأيت عاشقا فاعلم أنه المعشوق،

والعطشى يبحثون عن الماء في هذا العالم، ولكن الماء أيضا يعشق العطاش".

بهذا الأمل قدِم شمس إلى قونية. ويقول أفلاكي بأن تاريخ دخوله هذه المدينة كان في ١٢٤٤/١١/٢٩م. وقد اختلفت المصادر عن أول حديث جرى بينهما. فإذا جمعنا ما ذكره سِبَهسالار مع غيره من المصادر نستطيع أن نقول: إن اللقاء كان كالشكل الآتي: كان جلال الدين الرومي قد خرج من مدرسته وركب بغلته، وطلابُه يحيطون به ويتحدثون معه، وإذا بشمس يصادفه في الطريق فبادره بسؤال غريب:

"قل لي أيها الشيخ! هل الرسول محمد ﷺ أعظم أم أبو يزيد البسطامي؟"

فاستغرب الرومي هذا السؤال وقال: "ما هذا السؤال؟ ماذا يكون البسطامي بجانب خاتم الرسل ﷺ والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين؟"

وعندما أصرّ شمس على سؤاله: إذن، لماذا يقول الرسول محمد ﷺ: "ما عرفناك حق معرفتك يا معروف" وهو الذي كان يستغفر ربه في اليوم سبعين مرة، بينما نرى أن البسطامي يقول: سبحاني، ما أعظم شأني... فأي الكلامين أصح؟

أجاب الرومي: "إن البسطامي لم يكن ظمؤه كبيرا، لذا فقد ارتوى من ماء قليل، لأن كأسه طَفَتْ في أول مقام وصل إليه؛ بينما الرسول ﷺ الذي كان يجتاز في اليوم الواحد سبعين مقاما، وفي كل مقام جديد كان يشاهد صغر المقام

السابق، فكان يستغفر ربه لكونه قد اكتفى في السابق بذلك المقام الصغير... فهذا هو السبب".

فعندما سمع شمس هذا الكلام صرخ وسقط مغشيا عليه، فأخذه الرومي إلى مدرسته.

والظاهر أن هذا اللقاء أثر على الطرفين تأثيرا بالغا. ولعل جلال الدين الرومي يشير في أبياته الآتية إلى هذا اللقاء ويصور النظرات المحرقة لشمس:

بَانَ القمرُ في كبد السماء في وقت السحر

نزل من السماء وتطلع إلينا...

وكما يصطاد البازُ العصفورَ،

فقد أمسك بي ذاك القمر ورفعني إلى السماء.

هكذا بدأت الصداقة الشبيهة بقصص العشق العاصف بين شمس والرومي، واستمرت ثلاثة أعوام حافلة بالهزات، وانتهت أخيرا بنهاية تليق بالطرفين. كما أن "سلطان ولد" يشبّه صداقة والده مع شمس بالصداقة التي كانت بين "موسى" و"الخضر" عليهما السلام. فيقول: إنه على الرغم من أن موسى ﷺ كان نبيا إلا أنه بحث عن الخضر ﷺ وطلَبه، وكذلك الحال عند جلال الدين الرومي حيث كان رجلا عظيما في زمنه إلا أنه كان يبحث هو أيضا عن شمس.

وكما قام الخضر ﷺ بامتحان موسى ﷺ، كذلك قام شمس بامتحان صَديقه الجديد جلال الدين الرومي. ومع أن شمس كان يبدو في الظاهر صوفيا نشوانَ بالعشق الإلهي لا يعرف الفتور ولا الوقوف، وأنه كان يبحث عن عقل يستطيع أن يعرّفه على حقيقته ويتقبله كما هو، إلا أنه كان في الوقت نفسه ملتزما بالعقائد الشرعية إلى درجةِ أنه قال في كتابه "المقالات" -مشيرا إلى الأهمية-:

"لا أشتري بأقلّ حديث من أحاديث المصطفى ﷺ رسالةَ القشيري ولا غيرها من المؤلفات الثمينة."

تقول الأساطير بأن على المرء البحث عن الكنوز في الخرائب والأطلال.

وقد عَرف جلال الدين الرومي بنظره الثاقب أن هناك كنزا مخفيا وجوهرا براقا في روح شمس. لذا سلم له أمره تسليما كاملا، واجتاز بذلك جميع امتحاناتِ شمس واكتسب صداقته. كانت صداقة شمس غالية وكانت تتطلب ثمنا باهظا جدا. فلكي يصل المرء إلى أفق هذا الشخص الذي طلق الدنيا، ولكي يستطيع الإنسان الطيران في الأعالي التي رفرف فيها بجناحيه، عليه أن يتخلى عن كل شيء يتملكه. لم يستطع أحد حتى تلك اللحظة أن يدفع مثل هذا الثمن الباهظ باستثناء جلال الدين الرومي، حيث قام بوضع كل ما يملكه تحت قدمي شمس؛ عِلمه وعرفانه الذي كان الفريد فيهما في عصره، ومسلكه وشهرته... تخلى عن كل شيء لكي يصل إليه وليحصل على صداقته.

فماذا منحت هذه الصداقة جلال الدين الرومي؟ وماذا أكسبت شمسا؟

يقول "كُول بِنارْلي" في شرح هذا الأمر:

"لو لم يأت شمس، لما سطع نور مولانا جلال الدين الرومي الذي عرفناه، وكان سيبقى شيخا من الشيوخ أو صوفيا من الصوفيين الآخرين. كما أنه من المؤكد أن الرومي لو لم يلتق بشمس لما سمع أحد باسم شمس ولما بقى له ذكر. كان مولانا على استعداد لهذا الهيام. كان قنديلا تم تنظيفه وتلميعه ووُضِعت فيه الفتيلة ثم ملئ بزيت الزيتون. كان هذا القنديل في حاجة إلى شرارة وإلى نار لكي يشتعل ويضيء... وكان شمس هو هذه النار وهذه الشرارة. كانت هذه هي وظيفة شمس. ولكن عندما اشتعل هذا القنديل وانتشر ضوءه الباهر على شمس، أصبح شمس فراشة تحوم حوله حتى الاحتراق".

لقد وَجد كل واحد منهما ما كان يبحث عنه في الآخر؛ وجد الظمآنُ الماءَ، ووجدت الفتيلةُ الشرارة. الأيامُ والليالي التي قضياها معا طالت وطالت. فلم يعد الرومي يذكر شيئا غيره، لا دروسه التي يحضرها ولا طلابه الذين أمضّهم الشوق لأستاذهم. أصبح شمس هو دنياه الوحيدة، هو دروسه ومدرسته وتكيته... جلس وهو في سن النضج والكمال أمامَه وكأنه طالب يجلس أمام أستاذه. ترك مقام الشيخ والأستاذ وانقلب إلى طالب يتعلم في مدرسة أستاذه. كان اسم هذه

المدرسة هو مدرسة العشق، واسم الدرس هو درس العشق والهيام. لقد تجسد هذا العشق ولبس لباسَ اللحم والعظم في صورة شيخه المجذوب شمس. ونرى الرومي في البيت التالي كأنه يصور نفسه:

أصبح وجه الحبيب مُلهما للعاشقين

وأصبح وجهه الجميل المشرق

هو دفتره ودرسه ومثاله...

كان شمس كُرة نارية تحترق وتحرق غيرها، ولا تدع في الإنسان شيئا إلا وتحرقه. في السابق لم يكن الرومي يدع كتاب مسامرات أبيه من يده، وكان دائم القراءة له. كما كان يعجب كثيرا بديوان المتنبي، ويأخذ الفيض من كتب العطار وسنائي، ولكن هذه الكتب كانت كتب الآخرين. كان يرى شمسا أمامه وكأنه بركان عظيم، ويرى فيه مكمنَ روحٍ عظيم، فلماذا يشتغل بمؤلفاتِ وكتبِ وأقوال الآخرين في الوقت الذي يستطيع أن يقول أجمل وأروع مما قالوه؟! يكفي لهذا أن يعود لنفسه وينصت إلى إلهام قلبه ليَسمع الصوت الإلهي فيه ويقولَ: "هذا هو صوت روحي". هذا هو ما فعله شمس ونجح فيه، وقد أدرك الرومي أن "كل إنسان هو مريم حامل بعيسى" وعرف كيف يلد عيسى الموجود في داخله. تكلم هذا الطفل المعجز بكلام لم يتعلمه من إنسان، وهو لا يزال يتكلم معنا بكتاب الإرشاد الذي وهبه لنا. إذن فعلى كل إنسان أن يكتشف الجنة المخبأة في داخله، والمستترة في حناياه لكي تتحول الحياة الاعتيادية عنده إلى معنى آخر جديد، ولكي تتجدد بولادات جديدة على الدوام.

وأبيات "المثنوي" أدناه توضح الفرق بين حديث قلب الإنسان وكلمات الآخرين وأحاديثهم:

ثق واعتمد على الضوء اللامع في قلبك،

فلن تتفتح لك مغاليق هذه الأسرار المعقدة بالأقاصيص الفارغة،

فما النهر الذي يجري في السهول والجبال والهضاب،

ينفعك بقدر الماء الذي يسيل عندك في البيت.

كأن الزمن قد توقف عند هذين الصَّدِيقين اللذين كان كل منهما في نشوة غامرة ووَجْدٍ مشتعل وهو يشاهد الجنة الداخلية في قلب صديقه. أما الزمان في الخارج فكان يجري بالنسبة للآخرين. إذ سرعان ما أدرك طلابُه الذين كانوا يشكّلون هالة من الحب حوله وكذلك أصدقاؤه السابقون مَبْلغَ الخطر الماثل أمامهم، فبدؤوا يُضمرون العداء لشمس؛ كيف يأتي شخص غريب لا يعرفه أحد منهم ثم يصبح حائلا بينهم وبين أستاذهم الحبيب؟ صحيح أن اسمه كان شمس، إلا أنه أصبح في نظرهم غيمة سوداء حجبت عنهم شمس أستاذهم الحبيب.

وحتى في الأوقات النادرة التي كان يخرج فيها لم تكن عيناه تبصر أحدا غيره، وكان على الدوام يؤكد ارتباطه به حتى ولو اضطر إلى أن يدوس على بعض القواعد الاجتماعية. فمثلا: عندما بنى "جلال الدين قاراتاي" -وهو من محبيه- مدرسةً ودعا إليها العلماء جلس شمس في أدنى مرتبة بين الجمهور الحاضر لأنه لم يكن من العلماء.

وفي هذا الاجتماع سُئل جلال الدين الرومي: أين يكون صدر المجلس؟

فأجاب: "هذا يتغير حسب تغير الحال؛ صدرُ مجلس العلماء هو وسط الصُّفَّة، أما صدر مجلس العارفين فهو زاوية البيت، أما صدر مجلس العشاق فهو في جانب المعشوق".

قال هذا ثم قام من مكانه مسرعا وجلس إلى جانب شمس.

لم تكن أحواله هذه فقط هي سبب الحسد والحزن عند طلابه ومحبيه، لأن الرومي بدأ يدخل في أحوال غريبة لم يعتادوا عليها ولم تخطر لهم على بال. فهذا العالم الوقور الذي كان يفطر مرة واحدة كل ثلاثة أيام، ويقضي لياليه في العبادة، تحول فجأة إلى درويش قد أخذ الوجد بتلابيبه، حيث يصفّق بيديه ويدور حول نفسه مجذوبا بأنين الناي الحزين المحرق، ذاهلا عن الدينا غائبا عن الوجود بعد أن كان لا يعرف شيئا عن الموسيقى ولا عن السماع.[١]

(١) السماع / أو السما: قيام دراويش الطريقة المولوية بحركة دوران حول أنفسهم في تناغم خاص. (المترجم)

كلما طالت إقامة شمس في قونية -بعد أن كان لا يقيم في أي مدينة مدة طويلة- زاد حقد أهاليها عليه حتى وصل إلى حد لا يُطاق. والذي زاد من هذا الحقد والكراهية بعض كلمات لشمس فُهمت على غير ما كان يقصد، والتي لم يكن في استطاعة كل واحد فهمها على حقيقتها. ولا شك أن جلال الدين الرومي كان على وعي بهذا الوضع؛ ففي أحد الأيام عندما كان الرومي يمشي في الطريق وحوله طلابه صادف كلبة تأكل عظمة وترضع صغارها المولودة حديثا فوقف فجأة وقال:

أتعلمون أن هذا المنظر يلخص وضعنا الحالي. لو قام أي جرو بمحاولة أكل هذه العظمة لمات. أما الكلبة الأم فهي تأكلها وتقلبها إلى حليب لإرضاع صغارها. لذا فأنتم لا تستطيعون بلع كلمات شمس التي تشبه هذه العظمة. أما أنا فأستطيع بلعها لأرضعكم. لذا فلا تلتفتوا إلى كلمات شمس، بل أصيخوا سمعكم لي.

أما شمس فكان يتحمل التهجمات عليه من أجل خاطر الرومي ولكن صبره يكاد ينفد. لذا وبعد ١٦ شهرا من مقامه اختفى "شمس الطيار" فجأة، والذين فرحوا بخلاصهم من شمس سرعان ما أدركوا خطأهم. لأن لوعة الفراق زادت من نار شمس في قلب الرومي. وأصبح يلوم الذين كانوا سبب هذا الفراق، وانكفأ على نفسه واعتزل الناس. وعندما سمع بوجود شمس في الشام أرسل إليه أربع رسائل شوق يدعوه فيها للعودة إلى قونية ويتوسل إليه. يقول في إحدى هذه الرسائل:

يا نور قلوبنا، يا أمل آمالنا،

يا من سلمنا له حياتنا،

بالله عليك لا تطل الفراق وارجع إلينا!.

وأخيرا أثّرت هذه التوسلات الحارة في قلب شمس فرجع إلى قونية مع "سلطان ولد" الذي كان قد أرسل إليه لمرافقته في العودة. وقبل أن يصل إلى قونية كتب الرومي هذه الأبيات:

رشوا المياه على الطرقات،

وبشِّروا حدائق الجنان،

عطرُ الربيع آتٍ،

ها هو آتٍ، ها هو...

بَدرُنا، روحُنا، حبيبنا آتٍ

افسِحوا الطريق، استقيموا، تفسحوا،

قفوا جانبا وتنحّوا،

صاحبُ الوجه النير، وجهِ النور الوضاء آتٍ،

انبعثت الأرض على خطواته،

ها هو آت، ها هو...

رحلة العودة هذه التي استغرقت شهرا واحدا أدت إلى ولادةِ محبة جديدة بين شمس وسلطانْ ولد أيضا؛ فقد أحب شمس هذا الشاب المؤدب الذي أبدى له طوال الرحلة منتهى التوقير والاحترام، وحرص على راحته وأمسك بزمام فرسه ماشيا أمامه، وأشركه -شمس- في بعض أسراره المعنوية والروحية. وهذه الرحلة الأولى لشمس استغرقت ١٥ شهرا.

والأبيات الآتية تبين مدى فرحة الرومي بعودة شمس:

أيها الأحبة، لقد جاء...

جاء شمسي وقمري

جاء من له بدن فضي

وبشرة ذهبية

جاء عيني وسمعي وروحي

رأسي نشوان

كياني يختلج هذا اليوم

الذي مت من أجله في الصباح

وانتشرت كباقة ورد في طريقه

قد جاء إلي بمشيه الرشيق.

واشترط الرومي على تلاميذه النادمين على فعلتهم أن يعفو عنهم شمس أوّلا لكي يعفو هو عنهم. فمن ثم عُفي عن المذنبين، ورجعت البهجة والنضرة مرة ثانية إلى وجه الرومي الشاحب، ورجعت جميع الأمور إلى نصابها. غير أن هذا الأمر كان مظهرا خادعا، لأن أحوال الرومي المثيرة للقلق لم تتناقص، بل ازدادت على مر الأيام، فتغيرت أحواله وتصرفاته وتغيرت حتى زيه وملابسه؛ فبدلا من الجبة والعمامة بدأ يلبس "الكُولاه"[٢]، وبدلا من الجبة ارتدى عباءة الدراويش، وكان شمس يدفعه إلى الدوران (السماع) أكثر فأكثر. وكان رقص الدوران هذا شائعا عند متصوفة قونية منذ عصرين، كما أن علماء قونية ومتصوفيها كانوا على علم بالنقاش الذي دار في السابق حول هذا الموضوع، والذي اشترك فيه الإمام أبو حامد الغزالي أيضا. ولكن طلاب جلال الدين الرومي وأهالي قونية، كانوا مع هذا لا يستسيغون قيام أكبر علمائهم بالاستماع إلى الناي والربابة والاشتراك في رقص الدوران. بينما كان الرومي يتمثل ببيت شعر لشاعر آخر:

كلما دُرتُ حول نفسي اهتزت ملابسي

وكلما درت حول نفسي تجدد وجدي..

أي كان مستمرا في سلوك طريق الوجد والعشق، فكأن صوت الناي وأنينه يهمس في سمعه أسرار الوجود:

أنين الناي المحرق للقلوب

يفشي لك أسرار الكائنات

ما الناي إلا قُبلة للحبيب

عندما تلمس بشفتيك الناي..

---

(٢) الكولاه: غطاء الرأس الطويل أسطواني الشكل من اللباد الذي يلبسه الدراويش أثناء رقصة السماع. (المترجم)

انغمر الرومي في مسامرة شمس والاجتماع به في غرفته في المدرسة ستة أشهر كاملة، وكأنه يريد تعويض أيام الفراق، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول عليهما سوى ابنه "سلطان ولد" وصلاح الدين الزرقوبي. وإذا كان لأحد أن يصدق ما يقوله أفلاكي فإن أمورا خارقة كانت تحدث في هذه الغرفة؛ فمثلا استبدّ الفضول مرة بزوجة جلال الدين الرومي "كرا خاتون" فنظرت إلى داخل الغرفة، فذهلت فجأة عندما رأت ظهور ستة من الهنود بجانب الرومي وشمس. وقام الرومي بإعطائها فيما بعد باقة من الأزهار التي قدمها هؤلاء الهنود إليه وطلب منها ألا تخبر أحدا عما رأته.

يقول الرومي في البيت الآتي: إنه أصبح غريبا عن الجميع باستثناء شمس، فهو يقول مخاطبا شمس:

"جعلتك روحي؛ ومن أجلك أصبحت غريبا عن جميع أقربائي."

ومن جانب آخر، كان شمس يوضح في كتابه "المقالات" مدى حب الرومي له وأنه كان يبادله الحب نفسه أيضا إذ يقول: "أنا المطلوب، ولكن الرومي أصبح هو مطلب المطلوب". إذن، امتزجت النفسان إلى درجة أنه لم يعد أحد يعرف أيهما العاشق وأيهما المعشوق.

قام الرومي بتزويج شمس من ابنته بالتبني "كيميا خاتون" لكي يتمكن من ربطه بمدينة قونية. ولعل الخلوة الطويلة للرومي مع شمس وحرمان الجميع منه، ثم وفاة "كيميا خاتون" في ريعان عمرها كان السبب في تحرك أعداء شمس مرة أخرى. تقول بعض الروايات: إن علاء الدين جلبي -وهو ابن الرومي- كان من ضمن هؤلاء. وتقول هذه الروايات: إن علاء الدين جلبي -الذي كان شخصا زاهدا- كره شمسا لأنه استأثر بوالده، وزادت كراهيته له بعد وفاة كيميا خاتون. ولكن هناك شبهات كثيرة حول صحة روايات أفلاكي في هذا الموضوع. غير أن وجود عبارات التوبيخ لعلاء الدين المكتوبة في كتاب "المقالات" لشمس تبين وجود توتر بينهما. والظاهر أنه قبل اختفائه بشكل نهائي كان شمس قد شارك "سلطان ولد"؛ -الذي كان يحبه كابنه- بعضَ أسراره، وهناك إشارات إلى هذا

في كتاب "ابتداء نامه". فقد اشتكى شمس إليه من الذين يريدون التفريق بينه وبين والده، وقال بأنه إن غاب هذه المرة فلن يرجع أبدا.

فماهية هذا الغياب الثاني الذي وقع عام ١٢٤٧م لا تزال مجهولة ولا تزال محفوفة بالأسرار حتى يومنا هذا؛ فأفلاكي يقول بأن شمس ذهب ضحية لجريمة، فحسب روايته جاء سبعة أشخاص ووقفوا أمام غرفة جلال الدين وهو يتسامر مع شمس وطلب أحدهم من شمس الخروج إليه فالتفت شمس إلى الرومي قائلا: "إنهم يريدون قتلي". وبعد ما خرج صرخ صرخة مدوية وغاب. ولم يجد الذين سمعوا الصراخ وخرجوا لاستطلاع الأمر سوى آثار قطرات من الدم. ويتهم أفلاكي علاء الدين (ابن الرومي) بالاشتراك في هذه الجريمة، ويعزو إلى هذا سبب وفاته المبكرة. ثم يقول بأنهم رموا بجثة شمس في بئر، وأن "سلطان ولد" رأى ذلك في منامه فقام وأخرج الجثة من البئر ودفنها بجانب مدرسة "جوهر طاش". ولكن سلطان ولد أورد في كتابه ما يكذب هذه الرواية، فيقول بأن شمس قال له: إنه سيذهب وسيختفي هذه المرة بحيث يظن الجميع أنه قد قتل.

ويبدو أن هذه الروايات الشائعة ترددت على مسامع الرومي، فراح يشكو منها كما نرى في بعض قصائده إذ يقول:

من ذا الذي قال بأن ذلك الحي الدائم قد مات؟
من ذا الذي قال بموت شمسِ الأماني؟
لقد جاء عدو تلك الشمس إلى السطح
أغمض عينيه وقال: لقد مات شمس.

إن قيام الرومي بإصدار أمر بالبحث عن شمس بعد اختفائه، ثم قيامه هو بالذهاب إلى الشام أربع مرات باحثا عنه، يُظهر أنه لم يكن مقتنعا بقتل شمس أو لم يشأ أن يقتنع. ويقول "كُولْ بِنَارلي" بأن رواية أفلاكي حول قيام شمس بإطلاق صرخة مدوية، ووجود آثار قطرات دم على الأرض هي من الرسوم

والأشكال المتكررة في الأدب الصوفي، وهي من العناصر الخيالية عندهم. وهذا هو نفس الرأي الذي ذهب إليه "فيروزانفر" الذي قام ببحث علمي شامل حول جلال الدين الرومي.

أما السيد "محمد أوندر" الذي عمل مديرا لمتحف مولانا جلال الدين لسنوات عديدة، فيرجح أن شمس مات مقتولا. فهو يقول بأنه اكتشف تحت بلاط الضريح الذي يقال إنه ضريح شمس مخزنا يُنزل إليه بدرج وأنه عندما نزل إلى المخزن رأى قبرا قد ملط بملاط خراساني، فشك بأنه قبر شمس وأنه أخبر السيد "كول بنارلي" المختص بتاريخ الرومي بالأمر وأراه القبر فاقتنع السيد "كول بنارلي" بحقيقة هذا القبر.. مما يؤكد بذلك على وجود عملية قتل لشمس ودفنه في هذا المكان.

ولكن كيف نفسر عدم معرفة الرومي بموت شمس، وأنه قام بالبحث عنه في كل مكان. يقول "محمد أوندر" بهذا الخصوص بأن سلطان ولد والفئة القليلة حوله كتموا هذه المعلومة ولم يفشوها لأحد حتى للرومي لكيلا يحزن. ولكنه (أي سلطان ولد) أفشى هذا السر بعد وفاة والده إلى قريبه "أفلاكي". وقد سرد "كول بنارلي" الاحتمالات التي ذكرناها، والظاهر أنه اقتنع بعد اكتشاف القبر أن شمس ذهب ضحية جريمة. ولكن يبقى هناك لغز بعد سرد هذه الاحتمالات وهو أنه لماذا لم يكتب سلطان ولد هذا الأمر في كتابه الذي كتبه بعد سنوات من وفاة والده؟ ولماذا اكتفى فقط بإخبار أفلاكي بذلك؟ فالظاهر أن لغز عاقبة شمس ونهايته ستبقى سنوات عديدة دون حل.

بقي الرومي مدة طويلة تحت تأثير فقده شمس للمرة الثانية، وبعد أن بحث عنه في كل مكان ولم يجده لبس عمامة بلون الدخان(٣) ولم يبدلها طوال حياته. لم يكن الرومي يهتم كثيرا بالشِّعر قبل شمس، ولكنه بدأ الآن يصب في الشعر لواعج قلبه ويبحث عن السلوان في رقص "السماع" ليلا ونهارا، واستمرت مدة الترقب والأمل عنده مدة طويلة. كان يريد التصديق بكل خبر أو إشاعة حول

(٣) إشارة إلى أن قلبه يحترق. (المترجم)

شمس. ولعل الرواية الآتية تبين حالته الروحية والنفسية:

عندما ذكر أحدهم مرة أنه رأى شمس في الشام هب جلال الدين الرومي من مكانه فرحا وخلع ما عليه وأهداه لهذا البشير، غير أن أحد الحاضرين قال له: "هذا الرجل يكذب، فهو لم ير شمسا كما يدعي".

فقال الرومي: "لقد اعطيته كل هذه نظير خبره الكاذب. ولو كان الخبر صحيحا لأعطيته روحي".

سافر الرومي إلى الشام وبدأ يبحث عن شمس في كل زقاق ويسأل عنه في كل بيت. وربما هذه الأبيات تعكس حالته الروحية ومعاناته من الفراق:

إلى متى سأظل باحثا عنك

باحثا عنك في كل بيت ووروواء كل باب

وإلى متى ستظل هاربا مني؟

فما تركتُ زقاقا وما مررت بزاوية إلا وسألت عنك..

بعد سنتين من البحث والسؤال اضطر الرومي لتقبل الأمر الواقع.

ومما لا ريب فيه أن شمس تجلى في جلال الدين الرومي من الناحية المعنوية، فقد انقلب الرومي إلى شمس جديد. جاء في كتاب "ابتداء نامه" عن لسان مولانا:

ولو أننا بعيدان عن بعضنا البعض جسدا وروحا، فإننا نور واحد،

أيها المشتاق! سواء أرأيته هو، أم رأيتني أنا، الأمر سيان لأنني هو، وهو أنا،

وبما أني هو فلماذا أبحث عنه؟ أنا هو، إذن لِأتحدثْ عن نفسي،

أنا مثل عصير عنب يغلي في قدر، أُصفِّي في الحقيقة نفسي،

لا يغلي عصير العنب لأحد، بل يسعى من أجل إظهار جماله فحسب.

وفي قصيدة أخرى يتحدث عن هذا التوحد والاندماج. فيقول بأنه وصل بذلك إلى "أنا الداخلي" الحقيقي:

رأيتك مرآة كلية وأبدية.

شاهدت في عينيك نقشي وصورتي الحقيقية.

فقلت أخيرا لنفسي:

"بدأتُ رحلة نورانية في عينيه

فوجدتُ أخيرا ذاتي"

ناداني خيالي المنعكس من عينيك:

"لقد أصبحتُ أنا أنت، وأصبحتَ أنت أنا.

فلم يبق هناك مِن فرقٍ بيني وبينك"

وحسب ترجمة شاعر تركي: "أنت تعيش في قلبي ليلا ونهارا، وعندما أشتاق لرؤيتك، أنظر إلى أعماق قلبي."

ما بعد شمس

يمكن القول بأن فراق شمس شكّل معلما من معالم سير جلال الدين الرومي في طريق الكمال ودرجةً من درجات رقيه. لأن شمسا لم يكن هو الأصل، بل النور الإلهي الذي كان يراه الرومي فيه، النور الذي لمع في وجه شمس وبهر أنظار الرومي. لذا كان على هذا الوجه أن يغيب لكي يعلم أن هذا النور لم يكن منبعه ذلك الوجه، ولكي يتوجه إلى مصدر ذلك النور ومنبعه. فعبّر الرومي عن هذا الأمر في كتابه "المثنوي" في قصة مجنون ليلى. فالهدف هو الشراب وليس القدح، والجمال المطلق ليس لليلى. وليلى في هذه القصة لا تقوم إلا بدورِ قدح شراب العشق المقدم إلى مجنون. لذا لم يكن الرومي يرى من المناسب له أن يبقى متطلعا للأبد في ذلك الوجه؛ فهذا يَحُول بينه وبين غايته النهائية وهدفه، وإلا أصبح ذلك الوجه أو ذلك القدح صنما يقطع عليه الطريق. والأبيات الآتية تحذير منه من هذا الأمر:

هذه الأوجه مثل أقداح الشراب
ولا ترتبط بالشكل وتدع الشراب
ولا تكن سكران بحب الأقداح
وإن ترتبط بالشكل وتدع شراب المعنى
فهذا كارتباط بصنم
ولا تنس أن الشراب وإن كان في القدح
لكن القدح شيء والشراب شيء آخر.

ولهذا السبب فإن نظر جلال الدين الرومي المفتون بالجمال بَحَثَ بعد شمس عن أوجه جديدة تكون بمثابة مرايا للجمال فوجدها، أي وجد شموسا أخرى.

ثم إن الرومي ليس بمؤسِّس طريقة صوفية بالمعنى التقليدي الدارج، لأن عاطفته المتأججة وروحه التي لا تعرف قيدا كانت تحُول دون الاهتمام بطلابه بشكل منتظم. لذا فالأفضل أن نقول بأنه كان مصدر الإلهام للطريقة المنسوبة إليه وليس واضعها ومؤسسَها. وطوال ٢٣ سنة التي عاشها بعد فراقه شمس أحال الاهتمام بمريديه إلى أصدقائه القريبين المؤهلين لهذا الأمر وفي مقدمتهم "صلاح الدين" الملقب بـ"قُويُومْجو". وبعد وفاته تولى هذا الأمرَ "حسام الدين جلبي" الذي كان في الوقت نفسه رئيس رابطة "آهي".(٤) لذا سنتحدث أولا عن "صلاح الدين قويومجو".

كان صلاح الدين يعمل في قونية في مهنة الصياغة، ولم يتخرج من أي مدرسة. وفي أحد الأيام استمع إلى وعظ مولانا الرومي فتأثر به تأثرا كبيرا وبدأ يبكي، ثم قام ووضع رأسه فوق قدمي الرومي فأحبه وقربه منه. حتى إنه كان أحد الشخصين اللذين كان يُسمح لهما بالدخول إلى خلوة مولانا جلال الدين مع شمس. وبعد شمس مال قلب الرومي -المشتاق إلى الحب والوجد- إليه، ووجد فيه نور شمس فجعله خليفة له. وهذا أدى إلى تحول الحسد والحقد السابق الذي كان موجها إلى شمس إلى صلاح الدين. وكان المريدون في حيرة؛ فماذا وجده الرومي في هذا الشخص الأمي لكي يجعله خليفة له؟ ما الذي جعله يشيد به في كل مكان ويطلب من مريديه إطاعته؟.. لنقتبسْ بعض الأسطر من كتاب "ابتداء نامه" لشرح هذا الموضوع:

"لقد تخلّصنا من أحدهم لنجد أنفسنا أمام رجل أسوأ وأمرّ منه. كان السابق نورا، أما هذا فمجرد شرارة. كان كلام شمس جميلا وشرحه جذابا وكان شخصا فاضلا وعالما. كان من تبريز وكان لطيفا. لم يكن شخصا غليظا خشنا مثل هذا الشخص. فكيف لنا أن نسير على خطاه ونهتدي بهديه؟! إنه عاجز عن تركيب

(٤) رابطة "آهي": كلمة "آهي" عربية الأصل: "أخي". وهي رابطة مهنية تشكلت في الأناضول على أساس من التعاون. وَضعت هذه الرابطة الأسسَ الأخلاقية الإسلامية في التعاون المهني للمزارعين والفلاحين وأصحاب المهن الأخرى، ونظمت علاقاتهم مع المجتمع على أسس أخلاقية ومساعدة الفقراء والمحتاجين والغرباء. (المترجم)

جملة مفيدة، بل حتى عن قراءة سورة الفاتحة على وجهها الصحيح! لا ندري كيف ارتبط عالم جليل كالرومي بمثل هذا الرجل الجاهل! رجل كان يجلس سابقا في محل وضع الأحذية في المجالس، أما الآن فيتصدّرها... كيف يحدث هذا، وكيف نقول لرجل مثله يا شيخنا!؟."

والمعلومات التي تعطيها المصادر الأخرى تشير إلى أمثلة واقعية ونماذج ملموسة لهذه الانتقادات. فالظاهر أن صلاح الدين لم يكن قادرا على نطق بعض الكلمات بشكلها الصحيح. إذ يلفظ "قُفل" بـ"قُلْف"، ويقول "مُفْتلى" بدلا من "مُبْتلى". ولكن الظاهر من الروايات أن مولانا جلال الدين الرومي لم يكن يعير أهمية لهذا العذر، بل ربما عده مزية خاصة. ففي إحدى المرات تلفّظ الرومي بكلمة "خُنب" بدلا من كلمة "خُمْ" التي تعني الجرة الكبيرة، وعندما قام أحد مريديه بتصحيح الكلمة قال الرومي:

"إنني أعلم أن الكلمة الصحيحة هي "خُمْ"، ولكن ما دام صلاح الدين يتلفظها بـ"خُنب" فأنا أفضّل خطأ صلاح الدين على صحيح غيره." فكأن مولانا جلال الدين يريد القول بأن الحبيب مفضل عنده بكل أحواله.

وقد تم شرح هذا الأمر بنكتة طريفة في كتاب (المثنوي) إذ يقول:

"إن مجنون ليلى رآه أصحابه وهو يلاطف كلبا، فقام يشرح له أضرار الكلب وصفاته السيئة ولامه على فعلته هذه، فأجابه مجنون:

"هذا الكلب حارسُ حيّ ليلى، وأنا لا أبدّل شعرة واحدة من حارس ذلك الحي بأسود الغابة".

ويذكر "سلطانْ ولد" أن ردود الأفعال هذه تزايدت تجاه صلاح الدين إلى درجة أن بعض المريدين الحساد أرادوا قتله، ولكنهم لم يجدوا الشجاعة الكافية لتنفيذ هذه الجريمة. وتورد المصادر بعض الروايات التي تحكي أنه كيف استحق صلاح الدين هذا الحب، وأنه كيف كان يملك القلب الرقيق الذي أهّله لذاك الحب.. من الروايات التالية:

"ذهب جلال الدين في يوم من الأيام إلى سوق الصاغة، وعندما تناهى إلى سمعه الطَّرَقات المنتظمة للصاغة أخذه الحال وراح يرقص رقصة "السماع". وعندما رأى صلاحُ الدين هذا أَمَر عمالَه بالاستمرار على الطَّرْق وعدمِ التوقف، ثم ذهب إلى سيده جلال الدين الرومي وانكبّ على قدميه... استمر الدوران وتواصلت الطَّرَقات حتى أصبح الذهب غبارا. فنالت هذه المبادرة النبيلة من صلاح الدين إعجابَ الرومي فنظم من فوره هذا المديح الذي مطلعه:

هذا الآتي إلينا ليس صائغا

إنه كنز الذهب بعينه

ما أروع باطنه

وما أروع ظاهره

ما هذا الجمال!! ما هذا الجمال!!

ووجود واحدٍ وسبعين مديحا له حول صلاح الدين يُظهر مدى الحب الذي كان يكنه الرومي له. ولم يكتف بذلك بل زوج ابنه "سلطان ولد" من "فاطمة خاتون" بنت صلاح الدين وأصبح والدا رحيما لها، وقام بتعليمها القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم. وعندما حدث توتر بين الزوجين الشابين فترة من الوقت، وصّى ابنه بالخلق الحسن والاهتمام بزوجته والرعاية لها والحدب عليها وتلطيف خاطرها. كان الرومي يراعي حق القرابة، لذا سعى إلى تزويج "هدية خاتون" البنت الثانية لصلاح الدين، ولكي لا تخجل تجاه زوجها طلب من "كورْجو خاتون" زوجة مريده "بَروانه" المساعدة، فقامت هذه بتجهيزها بجهاز كبير حتى إنهم لم يجدوا مكانا كافيا في البيت يستوعب هذا الجهاز، فأعطي قسم منه إلى "فاطمة خاتون".

كان صلاح الدين شخصا وقورا قليل الكلام -بعكس شمس الذي كان فوار العواطف- ملتزما بأوامر الشريعة كل الالتزام. وبعد أن قضى عشرة أعوام في خدمة مولانا جلال الدين توفي في الشهر العاشر من عام (١٢٥٨م). وحسب

الرواية التي تشير إلى مدى تدينه؛ فقد اغتسل في يوم جمعة في فصل الشتاء ولبس جبته الرطبة التي لم تكن قد نشفت بعدُ وخرج للصلاة وقال لمن حذره من هذا الأمر: "أمرُ اللهِ ﷻ أهم من صحة بدني". كان صلاح الدين -كأستاذه جلال الدين الرومي- يرى الموت كليلة عرْسٍ. لذلك وصّى أن تُحمل جنازته بمرافقة رقص "السماع" والأناشيد.

ومع أن الرومي كان عالما إلا أنه كان يهتم أكثر بالنضج الداخلي، لذا نراه يحل حسام الدين جلبي في المحل الذي شغر من صلاح الدين. ولد حسام الدين في "قونية" عام (١٢٢٥م)، وهو ينحدر من أسرة "آهيّة" هاجرت في يوم من الأيام من "أُورْمِيّه" إلى "قونية". انتُخب وهو شاب رئيسا لرابطة "آهي" بعد وفاة والده الذي كان رئيسا لهذه الرابطة، ثم دخل حسام الدين هو وجميع منتسبي الرابطة في خدمة مولانا جلال الدين الرومي، واكتسب محبته بتفانيه في خدمته والارتباط به، حتى إن مولانا جلال الدين كان يرسل إلى هذا المريد المخلص جميع الهدايا التي كانت تصله، ويعهد إليه بجميع أشغاله..

كنا قد ذكرنا آنفا نكتة طريفة عن مجنون ليلى التي أدرجها الرومي في كتابه "المثنوي" حول حب مجنون ليلى لكلب يحرس حي ليلى. والرومي يلخص في هذه النكتة مشاعره تجاه حسام الدين جلبي؛ حيث نوى الرومي وأصدقاؤه في أحد الأيام زيارة حسام الدين، فصادفوا كلبا أثناء طريقهم، فأراد أحد الأصدقاء نَهْر الكلب وطَرْدَه، غير أن الرومي نهاه عن ذلك وقال: "لا تمسوه بسوء.. فإنه لم يعد كلبا اعتياديا، بل إنه كلب حي حسام الدين جلبي".

ويذكر "سلطان ولد" أن والده الرومي شبّه شمس التبريزي بالشمس، وشبه صلاح الدين بالقمر، وشبه حسام الدين جلبي بالنجم. وهذا يعني أن حسام الدين كان يأتي بعد صلاح الدين في نظر الرومي، ولكن بإخلاصه وخدماته التي قدمها إلى أستاذه الرومي يفوق كل أسلافه، لأن ظهور كتاب المثنوي كان بتشويق من حسام الدين؛ ففي إحدى الليالي التي انفرد فيها بالرومي اقترح عليه أن يؤلف كتابا يكون مرشدا للمريدين وللدراويش مثل كتاب "منطق الطير" للعطار أو مثل

"إلهي نامه" أي الرسالة الإلهية لـ"سنائي". فأخرج الرومي من عمامته ثمانية عشر بيتا من الشعر كبداية لكتاب "المثنوي". هذه الأبيات البديعة في مبناها ومعناها التي تأسر القلوب وتغذي الأرواح كانت بمثابة ألحان فريدة صادرة من ناي من القصب. كانت تحكي قصةَ مغامرة الإنسان في هذه الحياة، والغايةَ من وجوده في هذه الدنيا. الناي هو أفضل من يعرف مصير القصب اليابس. كان الرومي هو الناي نفسه.. كان جسدا قد احترق بلهيب الأحداث، احترق وتصفى وتطهر.. أصبح نايا يترجم بألحانه وأنينه روح صاحبه، ويهمس بسر الوجود لكل قلب حي، انتشت بألحانه هذه القلوب ولا تزال تنتشي، واستيقظت الأرواح من سباتها.. وكم أحسن الشاعر عندما قال:

لا تسَلْ عن سببِ خلق الناي

خُلِق كي يعلم الناس مولانا، صاحب الناي

أصبحت الأبيات الثماني عشرة الأولى التي ذُكرت آنفا بداية لمرحلة جديدة في النثر والشعر والتدوين، مرحلة جديدة ليس لها سابق. يقول الرومي: "إن بركة الحليب ليست في الضرع، ولكنها في اليد التي تحلبه". لذا نرى أن توسلات حسام الدين جلبي فجّر نبعا لا ينقطع هديره بل يسيل ويتدفق عند الرومي... تدفَّقَ الإلهامُ في داخله وراح يسجل كل شيء بقلمه على الورق. لم يكن هناك وقت أو مكان معين لهذا الإلهام وكتابته؛ في البيت، في السوق، في الزقاق، في الشارع... ولكن الإلهام هذا كان يأتيه في الغالب في أوقات السحر ويستمر حتى انبلاج النهار.

صحيح أن أشعار الرومي التي دونت في الديوان أيضا كتبت من قِبَل الآخرين، إلا أن كتاب "المثنوي" هو أثر لجهود حسام الدين جلبي، إذ كان يكتب الأبيات الجديدة الملهَمة لأستاذه الرومي بسرعة، ثم يقوم فيما بعد بعرض ما كتبه على أستاذه وإجراءِ ما يلزم من التصحيح. ولم يدَعْ الرومي جهود هذا الطالب والمريد المخلص دون مقابل؛ ففي أماكن عديدة من المثنوي، ولا سيما في كلامه المنثور في كل مجلد من مجلدات المثنوي يثني عليه بحرارة،

ويقول: إنه لولاه لما ظهر كتابه هذا. والفترة الزمنية بين المجلد الأول والمجلد الثاني والتي استغرقت عامين شاهدة على صدق هذا الكلام. فعند انتهاء المجلد الأول ماتت زوجة حسام الدين، فانكفأ حزنا عليها، ولم يعد يقدر على إمساك القلم أو القرطاس، مما جعل الإلهام ينقطع عن الرومي. واستمرت هذه الحال إلى أن خلص حسام الدين من نوبة حزنه، ورجع إلى نفسه وعاد إلى الكتابة. فاستمرت كتابة "المثنوي" من الموضع الذي انقطع فيه.

يشرح الرومي في كتابه: "فيه ما فيه" مدى أهمية المستمع عند الحديث والكلام أو عند الكتابة، فيقول: "كلامنا يشبه الساقي الذي يوزع الماء في المحلات، فإنْ تَرَكَ الساقي التوزيع فكيف يعرف الماءُ إلى أين يمضي، ولمن يوزَّع؟ وأنا لا أعرف إلا أن الماء إذا تدفق بكثرة فيعني أن هناك أماكن كثيرة عطشى، وإن نزر الماء عرفت أن فسحة المكان المروي صغيرة. كما ورد: "إن الله يعطي قوة الكلمة للواعظ حسب همة المستمعين". إنني صانع أحذية وعندي جلد كثير، ولكني أقص الجلد حسب كبر القدم. أقمشتي كثيرة ولكني أفصل الملابس حسب الأبدان".

رحلة الخلود

قضى جلال الدين الرومي عشرة أعوام مع حسام الدين جلبي في راحة واطمئنان وفي الكتابة والتدوين. ولكنه أصيب بحمى شديدة في أواخر عام (١٢٧٣م) ألزمته الفراش. ولم يستطع الأطباء تخفيف هذه الحمى وخفض درجة حرارة جسده. وكانت الفحوصات تدل على أنه لم يكن يشكو من شيء معين في جسده، ولكنه لم تبق عنده أي رغبة في الحياة. وقد لاحظ الأطباء هذا فضعُف أملهم في شفائه. كانت مدينة "قونية" قد حبست أنفاسها تنتظر بتوجس، بينما كان الرومي راضيا عن حاله سعيدا. وعندما دعا له "صدر الدين القُنَوي" بالشفاء قال له: "لتبق الصحة والشفاء عندكم أنتم!.. لم يعد هناك سوى ستار رقيق بين الحبيب والمحبوب". ثم قرأ البيت الآتي:

نزعتُ رداء جسدي ونزع هو رداء الخيال،

فأنا الآن أهتز من فرحة اللقاء..

وفي بيت آخر كان يقول:

ما دمتَ أنت مَن تقبض الروح،

فالموت أحلى من الشهد،

وما دمتُ سأكون معك،

فالموت أحلى حتى من الروح..

وكلما تحدث الرومي بهذه المعاني كان الذين يتمنون طول عمره يحزنون ويعاتبونه. وعندما قالت له زوجته: "ليتك تعيش أربعمائة سنة لكي تملأ العالم بنور الحقيقة". قال لها: "هل نحن فرعون أو نمرود لكي نتمنى العمر الطويل؟ إننا لم نُخلق لكي نعيش إلى الأبد في الدنيا تلك السجن الفاني. نحن في شوق دائم وحنين مستمر لحضور مجلس سيدنا ورسولنا محمد ﷺ..".

لم يكن ابنه الوفي "سلطان ولد" يفارق فراش والده، ولكنه لم يكن يتحمل رؤيته على تلك الحال، إذ كان قلبه يتمزق ألما عليه. ولكن كلمات والده الأخيرة ألهمته الصبر والسكينة والسلوان، وأصبحت بمثابة غَزَل أعطت للموت معنى آخر ومفهوما جديدا. وهكذا احتضن جلال الدين الرومي الموت ليلحق بالرفيق الأعلى. ولقد تعلم الناس منه أن الموت ليس وداعا بل وصالا، ليس حزنا بل فرحا، ليس خَلاًّ بل عسلا، لذا أطلقوا على ليلة وفاته اسم: "ليلة الوصال" أو "ليلة العرس".

قبل وفاته أوصى من حوله وقال لهم:

"أوصيكم بتقوى الله العظيم وطاعته أينما كنتم، وبقلة الطعام، وقلة النوم، وقلة الكلام، وأوصيكم أن تبتعدوا عن الشرور والآثام، وأن تواصلوا الصلاة والصيام، وأن تتحمّلوا أذى الناس وتصبروا عليه، خير الناس أنفعهم للناس، وخير الكلام ما قل ودل والحمد لله وحده".

عندما ذاع نبأ وفاة مولانا جلال الدين الرومي وانتشر في الآفاق، حدثت ضجة عظيمة وقام الناس بالتوجه إلى مكان الجنازة من مختلف الأرجاء، كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونساؤهم، غنيهم وفقيرهم.. وكأن القيامة قد قامت في مدينة "قونية". توجه الناس بمختلف طبقاتهم وأديانهم إلى قونية، المسلمون والمسيحيون واليهود.. كلهم أسرعوا لتوديع كوكبهم ومعلّمهم.. كان المسلمون يقولون: إنه كان نورا من أنوار الرسول ﷺ، والمسيحيون يقولون: إنه كان على خلُق المسيح عليه السلام، ويقول اليهود إنه كان على خلُق موسى عليه السلام... وبسبب هذا الازدحام الشديد لم تصل الجنازة إلى المقبرة إلا مساء. وكأنّ مولانا جلال الدين الرومي يقول من عالم الغيب لجموع المشيعين الذين لفهم الحزن والأسى:

"لا تظنوا وأنتم تشيعون جنازتي بأني كنت ملهوفا على هذه الدنيا، لا تحزنوا علي، ولا تبكوا.. هذا يوم الوصال. عندما تدفنونني لا تتأوّهوا ولا تندبوا ولا تحسبوا أنه الفراق والوداع... إنه يوم وصالي لقد شاهدتم الغروب، أليس كذلك؟ آه لو شاهدتم الشروق أيضا.. وهل تتضرر الشمس أو القمر من الغروب؟..".

تقدم لصلاة الجنازة -حسب وصية الرومي- الشيخ صدر الدين القنوي ولكنه لم يتحمل أمام هذه المشهد، فخر مغشيا عليه بعد خطوات. فتقدم القاضي سراج الدين وأمّ بالناس. وتم الرومي بجانب والده. وبعد أيام جَمع أشرافُ أهل قونية المال وبنوا له ضريحا. أصبح هذا الضريح مزار العشاق، فعُلق البيت الآتي من الشعر الذي كتبه أحد العشاق على باب الضريح:

هذا المقام بمثابة كعبة للعشاق

من أتاه ناقصا رجع كاملا مكتملا

كان هذا الكلام صحيحا، ولكن جلال الدين كان قد أعد لنفسه مكانا أفضل من هذا الضريح حيث كان يقول:

لا تبحث عن قبرنا في التربة بعد ما نموت

بل ابحث عنا في قلوب المحبين

ويجب ألا يغيب عن بالنا بأن لمدينة قونية مكانة مرموقة ودورا مهما في حياته، فهو ولد في بلخ كـ"جلال الدين"، ولكنه توفي في قونية بلقب "مولانا". وقد امتزج اسمه باسم المدينة التي عاش وتوفي فيها إلى درجة أنه إن ذُكر اسم قونية تذكرنا "مولانا" وإن ذكر اسم "مولانا" تذكرنا قونية، تماما كما جاء في الأبيات الآتية للشاعر "عارف نهاد آسيا":

تعال فالطرق ليست خالية

كل أنين ناي

وكل لون أخضر يعني القبة الخضراء[٥]

ومدينة قونية تعني "مولانا".

(٥) يعني القبة الخضراء في المسجد النبوي. (المترجم)

بيئته

والآن لنلق نظرة عابرة على المشهد السياسي والاجتماعي للعهد الذي عاش فيه جلال الدين الرومي، ولنتعرف على رجال الدولة الذين عرفهم وعلى أصدقائه الذين صاحبهم.

جاء والده "بهاء الدين ولد" إلى مدينة قونية في عهد حاكم سلجوقي كبير هو "علاء الدين كيكوبات". ولكن جزءا كبيرا من حياة مولانا صادفت عهد اضمحلال تلك الدولة؛ فبعد وفاة "علاء الدين كيكوبات" عام (١٢٣٧م)، جلس "غياث الدين كيخسرو الثاني" على عرش الدولة. لم يكن هذا الحاكم الجديد بكفاءةِ سلفه في الإدارة والحكم. وعندما قام المغول بجيش تعداده ثلاثون ألف نفر بقيادة "بايجو" بهدم مدينة "أرضروم" عام (١٢٤٢م)، كان على "غياث الدين" الانتظار، إلا أنه فضل الخروج لقتال "بايجو". وفي المعركة التي دارت بينهما عام (١٢٤٣م) في "كوسه داغ" مني بهزيمة ساحقة؛ فأصبحت الأناضول إمارة تابعة للمغول. وفي عام (١٢٥٦م)، خاض السلاجقة معركة أخرى مع المغول قرب مدينة قونية وانهزموا هزيمة نكراء مرة أخرى. فنصب المغول "ركن الدين كليج أرسلان الرابع" -وهو ابن غياث الدين وكان مسجونا- على عرش والده. ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد "معين الدين سليمان بَروانه" المقرب من المغول.

وعندما رحل المغول بعد أن ظلوا مدة طويلة قرب قونية، أراد السلطان "ركن الدين" قتل "معين الدين بَروانه" الذي كان قد جمع كل السلطات في يده، إلا أن "معين الدين" اتفق مع المغول وقام بقتل السلطان "ركن الدين" عام (١٢٦٥م) ثم عين مكانه ابنه "غياث كَيخسرو الثالث" وهو في عمر ٣-٤ سنوات. فمن ثم استطاع "معين الدين بَروانه" أن يحكم البلد باسم هذا السلطان الطفل سنوات طويلة حتى قام المغول بقتله عام (١٢٧٧م). بعد ذلك سادت فترة قتال بين الإخوة في الدولة السلجوقية التي اضمحلت تماما عام (١٣٠٨م).

في مثل هذه الفترة القلقة والمضطربة أصبحت أفكار جلال الدين الرومي وكتبه مصدر أمل وطاقة للمجتمع الذي عاش فيه. ونظرا لأنه كان يستقبل الجميع في تكيته ومدرسته، فإن الأفراد من جميع طبقات الشعب كانوا يؤمون تكيته ويزورونها. فإلى جانب أفراد الشعب الاعتياديين، كان رجال القصر والحكم يقصدونها ويرون في الرومي سندا روحيا ومعنويا، ويبدون له الاحترام والتوقير الذي كان أهلا له. أما الرومي الذي اتخذ موقفا فوق السياسة فانحصرت علاقته بالحكام ومديري البلد في إطار بذل النصائح لهم في الغالب. وأبدى عناية خاصة بالبقاء خارج الصراع السياسي الدائر بينهم.

ومن رجال الدولة الذين كانوا حوله من السلاجقة: "عز الدين كيقاووس الثاني" (١٢٤٥-١٢٥٧م)، و"ركن الدين كِليج أرسلان الرابع" (١٢٥٧-١٢٦٦م). فهذان السلطانان كانا يحضران مجلس "السماع" عند الرومي. وحسبما يذكر "أفلاكي" فإن السلطان "عز الدين" كان يشك أول الأمر في عظمة الرومي، ولكن وزيره "صاحب شمس الدين" الذي كان من المعجبين بالرومي، ألح عليه مرة لحضور مجلس الرومي وسماع وعظه، وعندما سمع وعظه بدل فكره وأصبح من مريديه. ولكن في مقابل ذلك نرى أن شقيق هذا السلطان وشريكه في السلطنة -وهو ركن الدين- كان من مريدي الرومي في البداية، ثم مال إلى شيخ آخر وهو الشيخ "بابا المَرَنْدِلي" وأصبح يناديه بـ"الوالد". وعندما سمع الرومي بهذا امتعض منه وقال له: "ما دمتَ وجدتَ أبا آخر، فإننا سنجد نحن ابنا آخر لنا".

ويربط "أفلاكي" بين هذا وبين قيام بعض الأمراء بقتل ركن الدين. وأشار الرومي إلى حزنه من هذه الجريمة في كتابه "الديوان الكبير" بأبيات كان مطلعها:

ألم أقل لك: لا تذهب إلى هناك؟

ألم أقل لك: إنهم سيورطونك في مصيبة كبيرة؟

كان بعض رجال الدولة الكبار في ذلك العصر كـ"الصاحب شمس الدين" و"جلال الدين قاراتاي" و"تاج الدين معتز" و"معين الدين بَروانه" من مريدي مولانا جلال الدين الرومي.

كان معين بَروانه -كما ذكرنا سابقا- من رجال الدولة الأذكياء، وأسس علاقة متوازنة مع المغول وأدار الدولة -بصفة نائب للسلطان- سنوات عديدة. ولكن عندما علم المغول أنه أقام علاقة سرية مع "بيبرس" في مصر، قاموا بالإيعاز إلى "أباكا خان" بقتله فقتله. قام معين الدين في أثناء حكمه بالعديد من الأعمال الخيرية والعديد من مشاريع البناء، وكان دائم الحضور إلى مجلس الرومي. كما كان يرسل الهدايا والأضاحي إلى تكيته ويحضر مجالس السماع. وقد ذكره مولانا جلال الدين الرومي في أماكن متعددة في كتابه: "فيه ما فيه".

إذا استثنينا هذه المناسبات الضرورية كان الرومي الرومي يفضل مجالسة أبناء الشعب والفقراء، ولم يكن يرغب كثيرا في مجالسة كبار رجال الدولة.

وإضافة إلى الأسماء السابقة، نستطيع ذكر أسماء أخرى من محبي الرومي وهم: القاضي عز الدين القنوي، والأمير بدر الدين جوهر طاش، ومجد الدين آتابك، وأمين الدين ميكائيل، والصاحب فخر الدين، وعَلَم الدين قيصر، وجلال الدين مستوفي، وآتابك أرسلان دوغموش، وحاكم قيرشهير جاجا أوغلو نور الدين، ورئيس الأطباء أكمل الدين النَاهجِوَاني. ومن سيدات القصر اللائي كن من مريدات الرومي جلال الدين الرومي أيضا: السيدة كورجو خاتون زوجة معين الدين بروانه، والسيدة كوماج زوجة كليج أرسلان الرابع.

وقد أشاع البعض أن مولانا جلال الدين كان من محبي المغول استنادا إلى بعض أقواله، إلا أننا إذا دققنا مجمل أقواله في حقهم نعلم أن هذه الإشاعة غير صحيحة. فهو يومئ في أماكن عديدة من كتبه إلى ظلمهم ويندد بهم. إذ كان يقول: إن حكمهم لن يدوم طويلا. وكان يراهم قاصري العقل عندما ينظر إلى بعض عاداتهم، كاجتماعهم حول المريض ورميهم السهام نحو السماء حتى يُبعدوا ملك الموت عنه. أما قوله: "إن الإنسان يجب أن يخاف من نفسه وشهوته أكثر مما يخاف من المغول" فيجب أن يُفهم في سياقه التصوفي فقط. كما قال بأنه سيأتي يوم يهتدي فيه المغول إلى الإسلام، وقد تحقق هذا القول فعلا فيما بعد. لقد كان القرن الثالث عشر، عصر نكبة كبرى على العالم الإسلامي بسبب

اجتياح المغول له. ولكن العالم الإسلامي كان مع هذا محتفظا بقوة الفكر ومستمرا بتنشئة العلماء والمفكرين الكبار ورجال التصوف.

وعلاوة على علاقة الرومي برجال الدولة في عهده، فقد كان على علاقة -بدرجات مختلفة- بالعديد من العلماء المشهورين ورجال التصوف وهم كالآتي:

محي الدين بن عربي (ت ١٢٤١م)

هو المتصوف الوحيد الذي يمكن أن يتبارى في شهرته مع مولانا جلال الدين الرومي، وهو صاحب كتاب "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكية"، وقد أصبح كلاهما من أهم الكتب التصوفية القديمة. وبينما يمثل الرومي قمة العشق والوجد بين المتصوفين؛ نرى أن ابن عربي يملك بنية عقلية منتظمة ومنهجية أكثر من الرومي، مما جعله يكون متسامحا مع الفلاسفة أكثر من جلال الدين الرومي. إذن، كان أحدهما يمثل لسان العشق والحب الإلهي، والآخر يمثل لسان العقل. حيث كان كل منهما نهرا متدفقا رقراقا، أثّر فيما بعد على العالم الإسلامي بواسطة تلامذته ومحبيه تأثيرا كبيرا.

يقول "دبليو جتيك" (W.Chittick): إنه على الرغم من اختلاف أمزجةِ وطبائعِ شراح "المثنوي" الذين جاؤوا فيما بعد، فإنهم اتخذوا أفكار ابن عربي كإطار جاهز لهم. وإذا قارنا كتبهما نرى بوضوح أنه رغم تعايشهما في نفس العصر لم يتأثرا ببعضهما البعض تأثيرا يذكر. ومما يجدر ذكره أن شمس التبريزي كان يحضر مجالس ابن عربي في الشام (دمشق) ويلتقي به كثيرا، ولكن لم يكن يتأثر به، ولم يستفد منه كثيرا كاستفادته من الرومي. ونرى أنه عندما قام بالمقارنة بينهما قال لابن عربي:

"لقد استفدتُ منه (الرومي) كثيرا، وفائدتي منه لا تشبه فائدتي منكم. فشتان ما بين هذا وذاك". ونلاحظ في كتاب "المقالات" أن شمس التبريزي كثيرا ما ناقض ابن عربي وعارضه. ولا يمكن أن نتصّور أن حلال الدين الرومي لم يلتق خلال دراسته في الشام بهذا المتصوف الكبير الذي كان يعيش أواخر عمره في

تلك الآونة. ووجود بيت شعر للرومي في كتاب "فصوص الحكم" يدل على ذلك التعارف. ولكن مقابل هذا لا نجد أي دليل حول أي تأثير لابن عربي على الرومي مع كون فكرهما متوازيين. والظاهر أن الرومي تعرف على أفكار ابن عربي من خليفته وابنه بالتبني وصديقه المقرب "صدر الدين القنوي".

صدر الدين القنوي (ت ١٢٧٤م)

هو خليفة ابن عربي وابنه بالتبني، وهو من مدينة قونية. فقام بخدمة كبرى عندما شرح بعض الأفكار الصعبة لأستاذه بشكل ملائم للشريعة، مما ساعد على نشر هذه الأفكار وقبولها. وقد اعتُبر صدر الدين من أبرز علماء عصره في علم الحديث. كانت له مدرسة وتكية في مدينة قونية. كان في بداية الأمر ينظر إلى جلال الدين الرومي بعين الشك والشبهة، بيد أنه أصبح فيما بعد من المحبين له والمعجبين به. ولعل قوله الآتي أبلغ دليل على إعجابه به وحبه له، حيث يقول: "لو أن جنيدًا والبسطامي عاشا اليوم لأمسكا بلجام فرسه". كما أن الرومي -لمقدار حبه له- أوصى بأن يقوم صدر الدين بالصلاة على جنازته.

قطب الدين محمود الشيرازي (ت ١٣١٠م)

هو من مدينة "قازَرون"، ويعد من أبرز علماء الطب الذين مثلوا طب "ابن سينا"، كما تتلمذ على يد الشيخ "نصير الدين الطوسي" وأتقن الرياضيات وعلم الفلك. ثم أصبح قاضيا في مدينة "سيواس". يقول "أفلاكي": إنه التقى بمولانا جلال الدين الرومي في قونية وأصبح من مريديه.

فخر الدين العراقي (ت ١٢٨٩م)

أصله من همذان. درس على يد صدر الدين في مدينة قونية "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكية"، فألهمه هذان الكتابان تأليف كتابه "اللمعات". يذكر أفلاكي أنه كان يشترك بعض الأحيان في طقوس "السماع" وتأخذه الجذبة. عيّنه "معين الدين بَروانه" بإذن من الرومي مسؤولا على التكية الكبيرة في مدينة

"توقات". وبعد أن قُتل معين الدين -الذي كان حاميا له- رحل إلى مصر ثم إلى الشام حيث توفي هناك.

نجم الدين الرازي (ت ١٢٥٦)

اشتهر بلقب "داية" وأصله من "ري"، وهو خليفة نجم الدين الكبرى. وعندما جاء إلى قونية هربا من المغول دخل في حماية السلطان السلجوقي "علاء الدين كيكوبات". وكان من حين لآخر يحضر مع صدر الدين مجلسَ جلال الدين الرومي.

بهاء الدين الطوسي القانعي (؟)

جاء إلى قونية هاربا من المغول. اشتهر بكتابه "سلجوق نامه" الذي سجل فيه تاريخ السلاجقة. كما اشتهر بترجمته لكتاب "كليلة ودمنة" نظما. والظاهر أنه كان متعصبا بعض الشيء؛ ففي إحدى زياراته مع بعض أصدقائه لمجلس جلال الدين الرومي قال:

"إني لا أحب سنائي (الغزنوي) أدنى محبة، لأنه يخلط الآيات القرآنية مع أشعاره. وأعتقد أنه ليس مسلما، إذ يخلط شعره بآيات من القرآن المجيد ويتخذها قوافي وأشطارا لشعره". فغضب مولانا أشَّد الغضب، وزجره قائلا: اسكت. ما معنى "ليس مسلما"؟ إن كان الإسلام رأى عِظَمَ سنائي فستسقط قلنسوته من رأسه (أي الإسلام) أفيكون هو غير مسلم وأمثالك مسلمين؟

إن إسلامه قد قُبِل منه في الدنيا والآخرة!!

أما هو فقد زيَّن أسررا القرآن وبيانه بذاك الصنيع، وصحيح أن يقال في حقه: غَرَفنا من البحر وعلى البحر أرقناه.

والجدير بالذكر أن القانعي كان يُظهر في العديد من قصائده مدى حبه لمولانا جلال الدين الرومي.

سراج الدين الأرموي (ت ١٢٨٣م)

كان من أبرز علماء عصره. وقد كتب كتابا مشهورا في علم المنطق سماه:

"مطالع الأنوار". قضى السنوات الأخيرة من حياته في قونية. أنكر الرومي في البداية ثم أصبح من المحبين له والمعجبين به.

صفي الدين الهندي (ت ١٣١٥م)

لقب بالهندي لأنه جاء من الهند إلى قونية ودرس هناك. ثم أصبح قاضيا على الشام. ونظرا لكونه مغرورا بعلمه لم يحمل الرومي عنه انطباعا جيدا في البداية حتى إنه قال في حقه: "إن تنظيف قلب صفي الدين الهندي أصعب من إقناع سبعين عابد صنم رومي بالدخول إلى الإسلام، لأن قلبه أصبح أسود أكثر من سواد سبورة دراسة الأطفال". ولكن الرومي بعد رجاء "سلطان ولد" قَبِل بأن يكون من مريديه فيما بعد.

الشيخ سعدي الشيرازي (ت ١٢٩٢ م)

هو من أشهر الشعراء وأحد النجوم اللامعة في سماء الأدب الإسلامي. صاحب كتاب "كلستان" و"بوستان". جاء إلى الأناضول عدة مرات، ومن المحتمل أنه تقابل مع جلال الدين الرومي. يذكر "أفلاكي" أن مِلِكا يدعى "شمس الدين الهندي" طلب من سعدي الشيرازي شعرا أفضل من شعره، فأرسل إليه بيتا شعريا من أشعار جلال الدين الرومي. وقد أشاع البعض أن المقصود من الشيخ الغني والبخيل الذي ورد في كتابه "كلستان" هو مولانا جلال الدين. ولكن لا سند لهذه الإشاعة، لأن هذه الخصال لا تنطبق على الرومي البتة.

وإلى جانب ما ذكرناه هناك مشاهير آخرون التقوا بالرومي وتسامروا معه منهم "الحاج مبارك حيدر" وكان من كبار الحيدرية، و"قطب الدين الشيرازي" و"همام الدين التبريزي" و"الشيخ رشيد الدين". كما زاره وحضر مجالسه أيضا، الشاعر الصوفي "يونس أَمْرَه" الذي يعد واضع أساس الشعر التركي في الأناضول وكذلك الصوفي المعروف "الحاج بكتاش ولي".

وقد دلت الأبحاث على التأثير الكبير للرومي على الشاعر المتصوف يونس أمره خاصة.

سمته، منظره، هيئته

حسب المعلومات التي أوردها "بديع الزمان فيروزانفر" والمعلومات التي أوردتها بعض المصادر إن مولانا جلال الدين الرومي كان نحيفا طويل القامة ذا وجه أصفر ولحية خط فيها الشيب، وحاجب أسود، كستنائي العين. نظر مرة إلى جسده النحيل في الحمام فخجل منه ومن الآلام التي جرعها لجسمه النحيف الضعيف. كما أشار في بعض أشعاره إلى صفرة وجهه. كان جسده ناحلا ضعيفا جراء الأيام الطويلة التي كان يصومها في شبابه والعبادات الطويلة لتي كان يقوم بها في أيامه ولياليه. ويذكر أفلاكي أنه كان يصوم أحيانا ثلاثة أو سبعة أيام متصلة ويعتكف كثيرا. وكما ذكرنا سابقا، فإن الشيخ برهان الدين أخضعه للرياضة الروحية والاعتكاف لمدة أربعين يوما ثلاث مرات.

إلا أنه ترك هذا النوع من الرياضة بعد شمس التبريزي كما أوصى مريديه أيضا بتركها. وعندما طلب منه ابنه البالغ عشرين عاما أن يسمح له بالاعتكاف والرياضة لمدة أربعين يوما قال له:

"لا توجد مثل هذه الرياضة في ديننا... فإنه توجد في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام فقط". إذن فقد منع مريديه من مثل هذه الرياضة لكي يتوجهوا إلى أعمالهم ومشاغلهم الدنيوية، ولكن دون أن يركنوا إليها. والبيت الآتي يوضح موقفه هذا:

ليست الدنيا أن تملك المال والولد؛

إنما الدنيا المذمومة

أن تركن إلى الدنيا وتنسى الله...

كان الزومي ذا وجه مهيب ونظرات نافذة حادة تعكس عالم روحه، ولم يكن باستطاعة أحد أن يطيل النظر في عينيه.

كان يرتدي في بادئ الأمر زي العلماء التي كانت عبارة عن عمامة وجبة. أما بعد تعرّفه إلى شمس التبريزي غير لباسة إلى عمامة رمادية اللون وعباءة فضفاضة.

خلُقه وعالمه الداخلي

ومن المعروف أن الرسول ﷺ: "كان خلقه القرآن". ولاشك أن القرآن والسنة النبوية كانا نبراسين لجلال الدين الرومي في خلقه، وقد اتخذ الرسولَ ﷺ قدوة وأسوة حسنة له. ولكن هناك الكثيرون اليوم ممن يريدون إظهار الرومي وكأنه كان فوق الأديان أو يعتقدون بذلك. إلا أن الرومي ردّ على هؤلاء وعبّر عن ارتباطه الشديد بالرسول ﷺ ثم عن أسفه وحزنه العميق من إسناد أقاويل باطلة كهذه إليه. فنراه يقول:

"أنا عبد (خادم) للقرآن ما دام هناك قلب ينبض في جسدي
وأنا تربة في طريق النبي المختار محمد.
فإنْ نسب أحدهم إلي شيئا آخر غير هذا،
فأنا أشكو إلى الله منه ومن قوله..

ولاشك أن الرومي كان رحب الصدر يحتضن الجميع، متسامحا أكثر من المتصوفين الآخرين. إلا أنه يعين إطار هذا التسامح والقبول بهذه الأبيات الرائعة:

أنا مثل الفرجار
بينما أقف برِجل
ثابتا على الشريعة
أدور برجلي الأخرى
على اثنتين وسبعين ملة.

وهكذا يشير الرومي إلى منبع الخلُق الذي تشرّب منه والذي أثار إعجابنا وجَذَبَنا إليه. وفي كتابه "فيه ما فيه" عندما يتحدث عن الرسول ﷺ يشبهه بالشمس، أما الناس الآخرون الذين يقتبسون النور منه فيشبههم بالشموع.

والضوء والجمال الموجود في الشموع يرجع في نهاية المطاف إلى المصدر الأول للنور.

إن الزومي تربى في رعاية والده واستفاد من علمه ثم مر من تربية شمس، لذا لم تبق عنده ذرة من الأنانية وحب الذات، وعندما ينظر إلى الكون لا يرى فيه سوى الجمال والتناغم المتكامل في هذا الجمال. وربما كانت الأبيات الآتية من شعره تلخص نظرته إلى الكون:

إن أكبر عيب
هو ألا ترى في هذه الدنيا
سوى العيوب
أتحسب أن الأرواح الكبيرة
السارحة في العوالم الأخرى
تستطيع أن ترى العيوب؟

استطاع الرومي بحدة بصره ونفاذ بصيرته أن يقرأ الكون وينظر إلى ما وراء الشكل ليرى التناغم والاتساق في هذا الكون والمخلوقات. فالكون في نظره هو بيت الله ﷻ، وجميع المخلوقات هم أهل هذا البيت، لذا تستحق جميعها الاحترام والحب.

التجلي الإلهي يكون دون ألوان، لأنه يجلى ويسيل في كل آن بشكل مختلف وبصورة أخرى، والرومي الذي كان مظهرا لهذا التجلي المستمر كان يظهر في كل آن في حال مختلفة. كل إنسان هو تجلٍ إلهي في حالة جامدة أو متجمدة. ولا يظهر اللون والشكل والاعتياد إلا في حالات التجرد والسكون. كما أن المرآة نفسها لا لون لها، غير أن الصور التي تنعكس عليها في تغير مستمر. فكان الزومي بمثابة المرآة هذه أمام هذا التجلي، لذا فإنه بلا لون. إذ كان يملك إدراكا شاملا غير مرتبط بلون أو بلغة أو بمنطقة جغرافية. مما جعله يستوعب كل اللغات. لذا نستطيع أن نقول: إن الرومي هو نفس ذلك الرجل

الغريب المسافر الذي ورد ذكره في قصة العنب المشهورة في كتابه المثنوي والذي أدرك أن لغة القلوب عند التركي والعربي والعجمي والرومي واحدة رغم اختلاف ألسنتهم. لقد سار الرومي على درب الحب والشفقة والحنان بقلبه الواسع الذي أحاط الخَلْق وشمل البشرية. لذلك نرغب في هذا المضمار أن نقدم شذرات ذهبية من هذه المحبة.

وقد ورد في كتاب "نفحات الأنس" لـ"مُلاّ جامي"، أن سراج الدين القنوي عندما سمع قول الرومي: "إنني مع ثلاث وسبعين ملة" غضب وقام بإرسال أحد مقربيه إلى الرومي. وكان الغرض من ذلك أن يضع الرومي في موقف حرج أمام الحضور. فسأله هذا الرجل عما إذا كان قد تفوه بهذا الكلام أم لا، فكان جواب الرومي بـ"نعم". وما إن سمع الرجل هذا الجواب حتى راح يشتمه ويصمه بالكفر، فابتسم الرومي وقال له برفق: "رغمَ كل هذه الإهانات فأنا معك أيضاً".

كما أن الرومي لم يكن يقدر على تحمّل الجدل والخصومات بين بني الإنسان حيث يقول: "ما خُلقنا إلا لنوحّد بين بني البشر، لا لنفرّق".

صادف يوما رجلين يتشاجران، وكان أحدهما يهدد الآخر قائلا:

"لو قلتَ لي كلمة واحدة فستسمع مني ألفا". فقال له الرومي:

"إن كنت تريد أن تقول شيئا فقلْه لي. فإن قلتَ لي ألفا فلن تسمع مني شيئا".

كان الرومي يعرف أنه لا يمكن إطفاء النار بالنار. فلن يطفئ نارَ الحقد والغضب سوى ماء الشفقة.

نصح مرة ابنه "سلطان ولد" هذه النصيحة الذهبية حول الصداقة:

"إن كنت تريد أن تحب عدوَّك وأن تنال حب عدوِّك، فادعُ له بالخير أربعين يوما، تر أنه سيصبح من أقرب خلانك. لأن هناك طريقا من القلب إلى القلب".

كسر الرومي قارورة أنانيته، وأبدى تواضعا لا مثيل له. احترم الناس وعاملهم على السواء بغض النظر عن اختلاف أديانهم وتنوع لغاتهم وتعدد مراتبهم ومنازلهم، ونبع كل ذلك من نظرته إلى آثار رحمة ربه ﷻ وتوقيره لها. فعندما

سمع مرة ابنته "مليكة خاتون" وهي تزجر خادمتها حزن وقال لها نصيحة تستحق أن تكتب بماء الذهب: "لماذا تزجرينها؟ لو كانت هي السيدة وأنتِ الخادمة فماذا كنتِ تفعلين؟ أتريدين أن أفتي بأنه لا يجوز أن يمتلك الناس العبيد ولا الجواري وأن العبودية لله الواحد الأحد فقط. لأننا كلنا إخوة وأصحاب".

وحسب ما يذكر أفلاكي، فإن أحد الرهبان الذين سمعوا بشهرة الرومي رحل من إسطنبول إلى قونية لزيارته واللقاء به. وبعد وصوله إلى مقر إقامة الرومي، دخل بين التلاميذ ليتفحصه أثناء إلقائه المحاضرات والنصائح على تلاميذه، ولكن قيام الرومي وقعوده والوقار الذي يبرز في مشيته ونظراته الحادة كفت للتأثير على الراهب. فهب الراهب مسرعا ليقبل يد الرومي. ولكن الرومي كان أسرع منه حيث قبل هو يد الراهب. فلم يتمالك الراهب نفسه فبادر إلى تقبيل قدمَي الرومي وانكب عليهما قائلا: "إن دينك لهو الحق". ولما رجع الرومي إلى منزله قال لابنه السلطان ولد: "ما لذلك الرجل، يحاول أن يسبقني في التواضع، فهل أتخلى لغيري عن التواضع الذي وَجد معناه الحقيقي في ديني!؟"

أبدى مولانا جلال الدين الرومي تواضعا أمام هذا الراهب رغم الذكريات الأليمة جراء الحروب الصليبية التي أغرقت الأناضول بالدماء والتي كانت آثارها حية في الأذهان، إذ كان هذا التصرف النبيل أمام المسيحيين شيئا فوق طاقة البشر.

كان الرومي كلما ازداد احترام السلاطين والأمراء وتعظيمهم وتوقيرهم له ازداد هو حياءً وتواضعا، وتعلّق بالجلوس مع الفقراء والمساكين؛ يذكر أفلاكي أن السلطان عز الدين وكبار الأمراء قاموا يوما من الأيام بزيارةٍ إلى مدرسة الرومي. فدخل الرومي حجرته وأغلق الباب قائلا: "أرجو ألا يتجشموا العناء" فاضطر الزوار إلى الرجوع من حيث أتوا.

وكان بعضهم يستهين بمريدي الرومي ويقول:

"نحن نحترم ونوقر الرومي، ولكن انظروا إلى مريديه؛ فكلهم إما بقال أو قصاب أو عامل أو خياط. ليس منهم أحد له شأن محترم، وليس بينهم شخص

ناضج أو له سبق في الخير" بينما كان الرومي يجيب على هؤلاء بقوله:

"لو كانوا ناضجين متمكنين لكنت أنا المريد لهم. ولقد قبِلتُهم كمريدين لي لأنهم ليسوا كذلك".

لم يكن الرومي يحب الكسل، لذا كان يحث ويشجع من حوله على العمل ويقول:

"لقد سددنا باب التسول على مريدينا". وقد طبق هذا المبدأ على نفسه أولا؛ فلم يكن يَقبل أي صدقة، بل يعيش على أجور فتاواه. وحسب كتاب "نفحات الأنس" كان يفرح لعدم وجود شيء أو أثاث في بيته ويقول: "حمدا لله، لقد أصبح بيتنا اليوم شبيها ببيوت الأنبياء".

لم يكن يحب أن يبقى تحت منة أحد، ولا يحاول أن يجعل الآخرين تحت منته. لذا كان يوزع الهدايا التي تأتيه. وفي الوقت نفسه يحاول جاهداً ألا يعرف أحد بالإحسانات التي يقوم بها. كان يضع أحيانا تحت وسادة طلابه (١٠) أو (٢٠) أو (٣٠) قطعة نقدية بخفية.

علم مرة أن أحد مريديه وهو "عثمان كوياندا" في ضيق شديد فأراد أن يساعده ولكن دون أن يعلم الآخرون بذلك فقال له:

"يا عثمان! لقد كانت لك في السابق عادة حميدة، إذ كنت تصافحنا كثيرا، فلماذا تركت هذه العادة الحميدة؟"

وعندما تقدم عثمان لمصافحته دس في يده مبلغا من المال قائلا: "من الآن فصاعدا لا تحرمنا من هذه المصافحة يا عثمان".

لم يكن يحب أن يفضله الناس على الآخرين؛ ذهب مرة إلى الحمام وكان فيه بعض المصابين بمرض الجذام، فطلب صاحب الحمام منهم إخلاء الحوض فورا، فلم يوافق الرومي على هذا، بل دخل الحوض معهم، وسكب الماء الذي كانوا يستعملونه على رأسه. كما لم يكن يقبل قيام أحد له من مكانه في المجالس. ومن أجل أن يمنع الناس عن مثل هذه الأفعال كان يترك ذلك المجلس على الفور.

كان الرومي زوجا حبيبا وأبا رحيما في بيته، وَحَما عطوفا، وجَدّا محبوبا. كان يحب أولاده ولا سيما ولده "سلطان ولد" وكان يقول له:

"أنت أقرب ولد إلي من ناحية الخَلق والخُلق.

وما خُلقت أنا إلا لكي تُخلق أنت".

وعندما ولد حفيده "أمير عارف جلبي" عام ١٢٧٢م لم تعد تسعه الأرض من فرحته وأخذ يدور وأخذ يدور حول نفسه من الفرحة ويرقص رقصة "السماع".

والنكتة الآتية تبين موقفه من الاعتقادات الباطلة كما تظهر أيضا مزاجه في المزاح والفكاهة؛

ففي أحد الأيام أرادت زوجته أن تخيط زرا من أزرار قميصه، ولكن حسب الاعتقاد الباطل الذي كانت تعتقد به، أن خياطة الزر على اللباس وهو ملبوس يجلب الشؤم، ولهذا طلبت من الرومي أن يضع تبنة في فمه، فراح الرومي يضحك ويقول: "لا تخافي إن في فمي سورة الإخلاص، وأنا أعض عليها بقوة، لذا فمن المستحيل أن يحدث لي أي مكروه".

شملت شفقته ورحمته حتى الحيوانات مقتديا في ذلك بالرسول ﷺ، فقد أطعم عدة أيام كلبة ولدت جراء بجانب حائط مهدم، وذلك عندما انتبه أنها لم تستطع ترك جرائها وأنها جائعة فأسرع الرومي لنجدتها ولإطعامها.

كان وحيد عصره في العلم، ولكن هذا لم يقده إلى الغرور، على العكس من ذلك كان حتى في شبابه عندما يتفوق على أحد الأشخاص في نقاش موضوع علمي، يتصرف وكأنه هو المغلوب، كما كان يحب الإخلاص في الصداقة.

وخلاصة القول: كان مولانا جلال الدين الرومي أفضل ممثل في عصره للأخلاق المحمدية التي اتخذها قدوة وأسوة حسنة. وكان رائد الخير والجمال والطهر والكمال والسمو، ولايزال رائدا في هذا المجال حتى يومنا هذا.

المولوية بعد الرومي

إن الطريقة المولوية التي تأسست للحفاظ على فكر الرومي تدين لابنه الأكبر "سلطان ولد". كان هذا الابن يملك قابلية كبيرة في التنظيم والتأسيس، إذ نلاحظ أنه كان يتجول في مدن عديدة في الأناضول ويؤسس فيها تكايا مولوية وينشر هذه الطريقة فيها. واستمر هذا الانتشار والتوسع في العهد العثماني أيضا حتى لم تعد تخلو أي مدينة مهمة منها. وأهم مدن الأناضول والروم إيلي والمدن العربية التي وجدت فيها هذه الطريقة والتي بلغ عددها ١١٤ تكية مولوية هي:

قونية، أفيون، كوتاهيا، مانيصا، موغلا، أسكي شهر، بورصة، دنيزلي، إسطنبول، غازي عنتاب، دياربكر، أورفة، أضنه، أنقرة، يوزغات، قسطموني، سيواس، سلانيك، بلغراد، البوسنة، القاهرة، مكة المكرمة، المدينة المنورة، الشام (دمشق)، حلب، طرابلس الشام، تبريز، وأخيرا لَفكوشا.

كانت هذه التكايا المولوية بمثابة مدارس للطلاب؛ حيث كانوا بالإضافة إلى قيامهم بمراسيم السماع حول لوحة خشبية قد ثُبِّت في وسطها مسمار، كانوا يتعلمون أيضا أصول مهن عديدة، منها: صنع المشروبات وعصير الفواكه، صنع المكانس، فن البيع في الأسواق، صنع القناديل، تهيئة الطعام وتوزيعه في التكية. إذ كان مجموع المهن التي تُعلّم في هذه التكايا يبلغ ١٨ مهنة. وكان كل درويش يخدم في التكية ١٠٠١ يوما. كما كان كل درويش يتعلم في الوقت نفسه بعض الفنون الجميلة حسب قابليته، كفن الخط وحفر الخشب (فن الحك) والموسيقى وصنع الخزف الصيني. وبعد أن يُتم الدرويش مدة الخدمة البالغة ١٠٠١ يوما على وجه جيد يلقب بـ"دده" وتُخصَّص له حجرة. ومع أن القواعد والأنظمة كانت على هذا الشكل، إلا أنه كان من بين دراويش التكية المولوية من يتعلم جميع ما يتعلق بالطريقة قبل انتهاء المدة المحددة.

ومن جهة أخرى أصبحت قراءة "المثنوي" على مر الأزمنة ضمن قواعدِ ومناهج التكايا المولوية. وكان يُطلق على من يقرأ ويشرح كتاب المثنوي في التكايا والجوامع اسم "مثنوي خان". كما كان على هؤلاء أخذ الإجازة من أحد شيوخ الطريقة المولوية في قونية، أو من "مثنوي خان" أقدم منه. وبعد قيام "داماد[٦] إبراهيم باشا" بفرض قراءة المثنوي كمادة أساسية في مدرسته، أصبحت بعد مدة من ضمن مواد الدراسة في المدارس الأخرى كذلك. وفي القرن التاسع عشر تأسست "دُور المثنوي" لقراءة المثنوي من قبل غير المنتمين إلى الطريقة المولوية.

(٦) الداماد: لقب كان يطلق على أصهار السلطان. (المترجم)

السماع ومفهومه

تقول المستشرقة "شيميل" (Schimmel) بأن بعض الأمثلة البسيطة على رقصة "السماع" التي أصبحت رمزا للمولوية موجودة أيضا في الثقافات الأخرى. فمثلا نجد في العهد القديم أن النبي داود ﷺ عندما يأخذه الوجد الإلهي كان يدور راقصا حول "صندوق الرب". كما كان النصارى في عهدهم الأول يقومون بالرقص من أجل مريم عليها السلام. وورد في الإنجيل: "قمنا بالنفخ على الناي لكم، وقمتم أنتم بالرقص" مما يفيد جواز الرقص. ولكن الرقص والسماع مُنع بالقرار الصادر من المجمع الكنسي عام ٥٨٩ م. حيث استند القرار إلى رأي القديس "هيريسوستوموس" الذي وصف الرقص بقوله: "أينما كان الرقص كان الشيطان هناك".

كما أن ماضي "السماع" في العالم الإسلامي قديم أيضا؛ فقد فتحت أول دار لأداء رقص "السماع" في بغداد عام ٨٦٤ للميلاد. ومن كتب "السَّرَّاج" و"الحجوري" و"القشيري"، ندرك أهمية رقص السما في أوساط الصوفية. فمثلا نرى أن شخصا مشهورا كـ"الحلاج" يصف حال العاشق الذي يدور حول نفسه، ويشبهه بالفراشة التي تدور حول النور. وأورد المتصوف المعروف "جنيد البغدادي" (ت ٩٠٩)، ثلاثة شروط لرقص السماع: الزمان والمكان والإخوان. وهو يرى أن الرحمة تنزل على الفقراء في أماكن ثلاثة منها السماع. لأنهم يسمعون الصوت الآتي من الحق تعالى ويقومون احتراما له. ويصف "ذو النون المصري" (ت عام ٩٥٦)، السماع بأنه لطف إلهي ينزل من الله تعالى إلى القلوب المتعلقة به. أما "الحسن الخرقاني" (ت ١٠٣٣) الذي كان مولانا جلال الدين الرومي يذكره كثيرا، فهو أيضا ممن مدح السماع. وقد خصص الإمام "حامد الغزالي" جزءً من كتابه "إحياء علوم الدين" لموضوع السماع. وكان أخوه المتصوف "أحمد الغزالي" يؤدي رقصة السماع مع المتصوف "عين

القضاة الهمداني". أما المتصوف "سنائي" و"أوحد الدين الكرماني" و"العطار" و"فخر الدين العراقي" الذين عاشوا قريبا من عصر مولانا الرومي، كانوا جميعا من المتصوفين الذين يؤدون رقصة السماع.

ويلاحظ أن الرومي سواء في كتابه "الديوان الكبير" أو في "المثنوي" يعلق أهمية كبيرة على السماع. ففي قصائده الغزلية يصف كيف يسمو الإنسان بدوران السماع، ويقول بأن السماع "غذاء العاشقين، وسبيل القرب من الله ﷻ". ثم يقول:

أتعرف ما السماع؟
هو سماع كلمة بلى، هو نسيان النفس والوصول إلى الله.
أتعرف ما السما؟
هو رؤية حال الحبيب وإدراكه
وهو سماع الأسرار الإلهية من خلف الأستار اللاهوتية.
أتعرف ما السماع؟
هو الغياب عن الوجود، وتذوق الخلود في الفناء.
أتعرف ما السماع؟
هو محاربة النفس، والرقص على الأرض كدجاجة نصف مذبوحة
مضمخة بدمها
أتعرف ما السماع؟
هو دواء النبي يعقوب وشم ريح يوسف من قميصه.
أتعرف ما السماع؟
هو عصا موسى التي تلقف سحر فرعون في كل حين.
أتعرف ما السماع؟
هو الوصول إلى السر الإلهي «مع الله»
الذي لم تستطع الملائكة الوصول إليه.
أتعرف ما السماع؟

هو فتح الفؤاد كالشمس التبريزي ومشاهدةُ الأنوار القدسية.

لم يكن الرومي -قبل لقائه بشمس التبريزي- يمارس رقصة السماع، أو كان قليل الاهتمام بها، ولكنه أصبح يهتم بها كثيرا بعدما حثه شمس على ذلك. ولا يُعرف على وجه التحديد متى بدأ الرومي برقصة السماع، غير أن المصادر تذكر أنه كان يقوم بهذه الرقصة في أي مكان وجد فيه موجة الوجد التي كانت تنتابه؛ في المدرسة والتكية وفي البيت وفي السوق وفي أثناء الدرس، بل حتى عندما كان يفتي. وفي أحد الأيام انتابه الوجد من الأصوات الصادرة من دكان الصائغ صلاح الدين، فقام وبدأ يدور حول نفسه ويقول قصيدته الغزلية المشهورة التي مطلعها:

بدا كنز من دكان الصائغ

فما أجمل الصورة، وما أجمل المعنى

ما هذا الجمال، ما هذا الجمال

وكذلك يروي أفلاكي أنه كان يقوم ويشارك الناس في رقصة السماع في المجالس التي كانت تعقد في المدن المختلفة أو في قصر السلاجقة. كانت رقصة السماع في البداية تؤدى على طبيعتها ودون قواعد، ولكنها أرسيت على قواعد وأسس معينة في زمن ابنه "سلطان ولد" ومن جاؤوا من بعده. ويَذكر "كول بنارلي" أن "بير عادل جلبي" (ت١٤٦٠م)، الذي بقي في مقام "الشيخ" في التكية مدة ٣٩ عاما هو الذي أعطى للسما شكله النهائي.

من المعلوم الآن أن لكل شيء في رقصة السماع رمزا معينا، بدءاً من زي الراقص حتى جميع الحركات. فالمكان الدائري الذي تُجرى فيه مراسيم الرقص يرمز إلى الكون، واللباس الأحمر الموضوع على الشيخ يرمز إلى ارتحال الرومي ولقائه بربه أثناء غروب الشمس، أي هو كناية عن الوصال. أما "الكولاه" فيرمز إلى اللحد، أي إن هذا الدرويش الراقص قد أمات نفسه وشهوته قبل موته. أما التنورة البيضاء التي يلبسها فترمز إلى الكفن. ويرمز لباسه العلوي

إلى النفس، وعندما يدخل الدرويش إلى الرقص يخلعه إشارة إلى خطوة نحو الطهر المعنوي. وعندما يعقد ذراعيه على كتفيه فهذا إشارة إلى وحدة الخالق، وعندما يفتح ذراعيه ويدور حول نفسه من اليمين إلى اليسار فهو رمز بأنه يحتضن الكون كله بقلبه، وعندما يشير بيده اليمنى إلى السماء وبيده اليسرى إلى الأرض وهو يدور فهذا يرمز إلى أن ما يأخذه من الله يوزعه على الناس.

تبدأ مراسيم السما في تركيا باللحن الذي وضعه العطري (ت١٧١٢م) وبالمدائح النبوية. وصوتُ القدوم يرمز إلى الأمر الإلهي "كن"، أما صوت الناي فيرمز إلى الروح التي نفخها الله تعالى في الإنسان. ثم يقوم الدراويش بالدوران حول المكان خلف شيخهم ثلاث مرات متهيئين للرحلة الروحية والمعنوية. تبدأ رقصة السماع -أو الرحلة الروحية- بخلع اللباس الخارجي كرمز للتخلي عن النفس وأهوائها، ثم بالوقوف أمام الشيخ ناكسي الرأس طالبين الأذن. ورقصة السماع عبارة عن أربع تحيات ترمز باختصار إلى: "ترك العبد لأهواء نفسه، والبدء بسلوك الطريق إلى الله، ثم الفناء فيه، ثم العودة إلى العبودية كإنسان كامل".